

24

روايات امير به السجيت

الآن .. نرجوكم الصمت

سافاري

www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن كـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهل مشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دوماً ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيداً وسط أدغال (الكامبيرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطر لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) ..

نعيش معه تلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجاتين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لا يمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حياً .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيباً ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكامبيرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافاتا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

1- (كينيا) كالعادة ..

ولماذا لا تمضى الحياة كما كانت ؟

ما زال وجهي في مكانه بنفس السمات ، وما زالت
(برنات) زوجتي ، وما زالت وحدة (سافاري)
تستقبل الحالات العصية ، وما زالت الملايا شبيهة
بشعبان نائم طيلة الوقت .. أحيانا ينهض ويلدغ وتكون
لدغته قاتلة ، ثم يعود للنوم ..

ما زال (سينوريه) شاعرا حالما ، حتى وإن تم تعيينه
مديرا للوحدة .. وما زال (ستيجوود) في السجن
والتحقيقات جارية .. ما زالت أثار الانفجارات هنا وهناك ،
ونذكرى تلك الليلة السوداء التي قضيناها جميعا في
مكتب المدير ..

ما زال كل شيء في مكانه ..

فلماذا لا تمضى الحياة كما كانت ؟

دعني أقل لك حقيقة هي أن مكاتي صارت
رفيعة إلى حد كبير في (سافاري) .. صحيح أنني
مصدر متاعب أينما ذهبت .. يكفي أن أظهر في
مكان ما ، حتى تبدأ المؤامرات والذسائس والموت
والشجار ، لكن هذا يعني أنني أصبحت شخصا
مرموقا ..

هذا سبب لي بعض المتاعب .. لا أقدر أن ادعى
أنهم يحقدون علي .. لا .. لا أجرو على هذا ، لكنهم
بالتأكيد لم يعودوا يكونون لي ذات الود الذي عرفته
من قبل .. بعض الابتسامات مفتعلة أو لا وجود لها
على الإطلاق .. أضف لهذا أن عددا لا بأس به منهم
كان من (حاشية) المدير المنصرم (ستيجوود) ،
وهم يرونني ذلك الفتى البغيض الذي جاء من
(الكامبيرون) ليهدم رئيسهم المحبوب ..

وهكذا اتخذت قرارا الأمثل في التعامل مع القوم
هنا : لا تتعامل مع القوم هنا .. هذا يبدو مريحا إلى
حد ما ..

كذا تمضى الحياة بلا جديد ، والحقيقة أنني بدأت أتأهب للعودة إلى (الكامبيرون) حيث كل هؤلاء الأوغاد الأعزاء .. حتى هذه اللحظة لا يوجد ما يوحى بوجود خطر على من أى نوع .. صحيح أن هناك مجموعة من عبدة الأقاعي المجانين يعتبروننى كافراً خائناً ، وهذا حافظ بالطبع كى يقرر أحدهم التقرب إلى الأقاعي بذبحى ، لكن مادام (بودرجا) حياً يرزق فمن الواضح أن المدير فى (الكامبيرون) بالغ كثيراً فى رعبه ..

لكن خطتى لم تتوقف عند هذا .. طريق العودة إلى الكامبيرون سيكون طويلاً نوعاً ، لأننى سأمر على مصر أولاً .. لا بد من أن ترى أمى زوجتى وتحبها .. هذه نقطة مهمة .. لسوف تهيم بها حباً ، ولسوف تجلسان فى الصالة أمام التلفزيون تشربان القهوة بالهيل (الحبهان) وتثرثران عن كل شىء .. ولسوف تكفان عن الكلام حين أدخل أنا ، مما يدل على أنهما تتحدثان عنى قطعاً ..

هذه أشياء لا بد أن تحدث .. ولا بد أن أراها تحدث ..

طبعاً لم أكن أعرف وقتها أن مغامرة قاسية فى (كليمنجارو) لا بد أن تحدث لى قبل أن أظفر بهذا الترف .. سأرى (كينيا) كما لم يرها أحد .. وبعدها يحق لى أن أظفر ببعض الراحة .. لكن هذا موضوع الحكاية القادمة وليس هذه المرة ..

كنت أعقد ربطة عنقى فى ذلك الصباح واقفاً أمام المرأة ، بينما (برنات) كانت بالفعل قد فرغت من ارتداء المعطف الأبيض ، ولفت المسماع حول عنقها .. لقد بقى على موعد العمل عشر دقائق لكنها نشيطة منظمة رائقة البال .. هذا سهل حين تكون مسئولاً عن نفسك فقط ..

وابتسمت إذ تخيلتها تخوض صراعاً دموياً مع وحش مربع كابوسى هو طفلنا .. طفلنا الذى قد يظهر يوماً ما ليجعل حياتنا ملحمة إغريقية ..

قالت لى وهى تمشط خصلات شعرها الأشقر الذى لا يحتاج إلى تمشيط فى الواقع :

- « ما زلت أجد من الصعب ألا يكون (ستيجوود) مديراً .. »

قلت لها في غيظ وأنا أضع المعطف على كتفي :

- « هل اشتقت إليه ؟ تباً للنساء ! »

- « بل هو التعود يا بنى .. التعود .. لو أن كوبرا (رانجهال) اختارت بيتها تحت فراشنا ، فلا بد أنك ستفتقد لها لو صحت يوماً فلم تسمع فحيحها .. »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

- « لماذا يحب الناس المال هذا الحب الجم ؟ »

- « لأنه رائع .. هذا هو كل شيء .. »

ثم بحثت عن المسماع بدورى ولففته حول عنقي وأردفت :

- « إنه يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت ذى حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى بحر لا يبعد إلا عشرين متراً .. فكرى فى نزهة فى (سنغافورة)

أو الهند أو البرازيل .. فكرى فى يخت خاص وطائرة رياضية و ... فكرى فى أى شيء غير هذا السجن الذى نعيش فيه .. إننى بشكل ما أفهم (ستيجوود) حتى لو كان قد بالغ بعض الشيء »

- « وهل كنت ستفعل ما فعله ؟ »

قلت فى لامبالاة وأنا أنظر حولى لأرى إن كنا قد نسينا شيئاً :

- « حتى هذه اللحظة لم أتعرض لأى إغراء .. ليس أمامى ما يسرق .. وأنا لا أملك الحكم على حراس المرمى الذين لم يتعرضوا لكرة واحدة طيلة المباراة .. لقد تعلمت أن كل إنسان يقضى حياته فى الفخر بأنه لم يقترب ذنباً ، فالحقيقة هى أن نطاق حياته بعيد عن أية فرصة لاقتراف الذنوب .. فإذا أتاحت له الفرصة .. حسن .. أنت تعرفين من أين يأتى اللصوص والمختلسون والقتلة ! إنهم من بيننا .. إنهم نحن ! هؤلاء أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف مما تصوروا .. أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخى الأخلاق كما حسبوا .. »

- « أنا لم أتعرض لأى إغراء ، واعتقادی الخاص
أننى سأقاوم وقتها ، وأن تربيتى القويمة ستصمد .. لكن
من يدري ؟ إن الإغراء لمغر بحق .. وعندنا فى مصر
نقول (الشيطان شاطر) .. ضعى عشرة رجال ممن
يتشدقون بنبل الخلق والرفعة فى موقف يسمح
بالفساد .. ولكن أکدى لهم أولاً أنه لا خطر عليهم على
الإطلاق .. ما سيفعلون هو سر بينهم وبين ضمائرهم ..
ثم راقبى نتيجة التجربة .. أعتقد أن اثنين من العشرة
لا أكثر سيرهنون بحق على أنهم نبلاء .. »

بدت عليها الحيرة وقالت :

- « أنا أعرف أننى سأصمد .. »

- « وأنا أعرف أننى (سأحاول) أن أصمد .. ومن
يدري ؟ لربما لعبت تربيتى دوراً وقتها .. ثمة مقولة
فى مصر معناها (من لم يشبع على مائدة أبيه فلن
يشبع للأبد) .. وأنا شبع على مائدة أبى بالتأكيد ..
لكنى أدعوا الله صادقاً ألا يضعنى فى موقف أتعرض
فيه لإغراء .. »

- « نحن نقول فى صلاتنا : لا تدخلنا فى تجربة ،
ولكن نجنا من الشرير .. »

هنا لاحظت فى رعب أن الوقت قد حان وأنا فقدنا
أو كدنا مزية البكور .. لهذا فتحت الباب وأشرت لها
أن الوقت قد حان .. ليست المناقشات حول الأخلاق
هى أنسب شىء بعد الاستيقاظ من النوم ..

ذهبت هى إلى قسم الأطفال ، بينما اتجهت أنا إلى
مكتب المدير (سينوريه) ، وكانت السكرتيرات
الحسنات منهمكات فى العمل . طبعاً نقصن واحدة
هى (إيفيلين) .. وكان (سينوريه) من الطراز الذى
لا يريد كل هذا العدد فى مكتبه .. إن ما تقوم به أربع
سكرتيرات يمكن أن تؤليه واحدة مخصصة .. هو بطبعه
لا يحب الاستعراض ولا المظاهر البراقة .. حاول أن
يقلل العدد فلم يفلح أو لم يطاوعه قلبه كى يفعل ..

أما عن السكرتيرات أنفسهن فالمرأة كما تعلم كائن
غريب شديد الغموض .. كان (ستيجوود) يضايقهن
ويتعامل معهن كفتيات جميلات لا كزميلات عمل .. وقد
ضايقهن ذلك كثيراً وأشعرهن بنوع من المهانة ..

فلما جاء (سينوريه) لم ترق لهن على الإطلاق
طريقته المهذبة الرسمية في التعامل .. وشعرن بأنه
- ربما - متعال أو أحمق .. بالإضافة إلى أنه كائن
غريب ناهل عصبى لا يمكن أن تقارنه بـ (ستيغود)
الوسيم الأنيق كما يريته ..

هذه من تناقضات الأنثى التى لا يمكن فهمها ..
المفترض أن يكون المدير وقحا ليتيح لهن أن يغضبن
ويتذمرن منه ، ويتحدثن عن (ضيق أفق الرجل الذى
لم يستطع قط أن يعتبر للمرأة فردا نشطا في المجتمع
مثله) .. لما أن يتعامل بتهذيب وصرامة فهذه إهانة لهن ..

المهم أننى توجهت إلى المكتب ، وكانت علاقتى
بـ (سينوريه) معروفة من البداية ، لهذا كن يسمحن
لى بالدخول على الفور دون مناقشة .. بينما فى عهد
سلفه كان على أن أنتظر عشر دقائق على الأقل على
سبيل الإعداد النفسى و (التطهير) ..

سألتنى السكرتيرة (جين) ضاحكة :

« من من مصائب جديدة ؟ »

هزئت رأسى بمعنى أنى لا أذكر ، ثم مددت يدي
فتناولت قدح القهوة الذى أمامها فرشفت منه رشفة
كبيرة وسط عباراتها الاحتجاجية ، وقلت فى شيء
من خجل :

- « معذرة .. إن القهوة تريح داء السل الرئوى
الذى أعانيه .. »

ثم تركتها ودخلت إلى المكتب ..

كان (سينوريه) صديقى العزيز العصبى جالسا
يتشاجر فى الهاتف .. الحقيقة أننى لم أبتلع بعد فكرة
أنه صار رئيسا للوحدة .. هذا المقعد متسع عليه كما
أتصور .. لكن من ناحية السن والخبرة والمركز
العلمى ، لم يكن هناك إلا رجلان يصلحان للمهمة :
(سينوريه) والفقيه (جون ويلسلى) لو كان حيا ..

جلست دون دعوة ، وكان هناك (ترموس) ملىء
بالقهوة من دون شك ، فمددت يدي وأفرغت لنفسى
بعضها فى كوب ورقى كان هناك .. ورحت أشرب وأنا
أأمل الغرفة التى لم يتغير فيها شيء .. حتى شهادت

(ستيجوود) وصورته الجدارية العملاقة . ليس
(سينوريه) من طراز (رمسيس الثاني) الذي يزيل
كل أثر لمن سبقوه .. كأنما يزيلهم من التاريخ
ذاته ..

في النهاية وضع السماعه وراح يبرطم بالفرنسية ،
ثم قال لي :

- « يريدون قتلى بكل هذه الأعباء .. »

هزئت رأسي بمعنى التعاطف ، فقال لي وقد تذكر :

- « هل أنت واثق من أنك راغب في العودة إلى
(سافاري - 4) ؟ »

- « ظننت هذا مفهوماً ياسيدي .. إن مصر هي
وطني الأول .. و(سافاري - 4) هي وطني الثاني ..
فإن لم أستطع العودة لوطني الأول كان وطني البديل
على الأقل .. »

- « فعلنا كل مايمكن كي نريحك والدكتورة
(عبد العظيم) .. »

- « وأنا أعترف بهذا شاكرًا ، لكن الراحة ليست
كل شيء .. هناك الألفة .. هناك التعود .. ومهما بلغ
جمال المدرسة يشعر الطفل بحاجة ملحة إلى العودة
إلى دارة المتواضعة بعد الظهيرة .. »

قال وهو يوقع بعض الأوراق :

- « ليكون .. لكن لابد من أن تعطيني وقتًا .. لابد
من أن نستقيم طبييًا جديدًا لحملة (كالا أزار) .. المشكلة
هي أنك صرت جزءًا مهمًا من الآلة .. »

- « هذا يؤكد ماقله للحكام قديمًا : لاتصر جوهريًا ..
لاتكن عنصرًا يستحيل الاستغناء عنه .. »

- « سنحاول الاستغناء عنك ، وإن كان هذا صعبًا .. »

ولم يتكلم أكثر ، لكنني كنت أفهم .. إن منصب المدير
يكبله بألف صنف .. لكن هذا الرجل يحبني ويحترمني
مثلما أحبه واحترمه بالضبط .. سوف يكون الفراق
عسيرًا ، لكنني سأكتب له بانتظام .. ومن يدري ؟ إن
أعضاء (سافاري) أحجار على رقعة شطرنج .. لا يعرف

أحد أبداً أين يوضع الشهر القادم .. ربما يأتي هو إلى (سافاري - 4) أو أعود أنا لأستقر هنا أبداً ..

كان يقلب الأوراق المترامية على مكتبه والتي لا يعرف بالضبط الحل الصواب مع أكثرها . لابد أنه الآن يعتبر أن (ستيجمود) كان عبقرياً ..

قال لي :

- « هناك انتداب في (نيروبي) .. وزارة الصحة تريد أطباء .. »

اعتذلت في مقعدي وأرهفت السمع :

- « من يريد أطباء ؟ »

نزع عوينات المسافات المقعرة ليتمكن من القراءة بشكل أفضل ، وأبعد الورقة قليلاً ثم قال :

- « مشروع دراسات الباراسيولوجي .. يبدو أن هناك رومًا في الموضوع .. »

ثم راح يقرأ بصوت خفيض كأنما يندن ، مما جعلني أفوت نصف ما قال :

- « نم نم نم .. فائق الاحترام .. هممم .. نم نم نم نم .. نم نم نم نم .. أشخاص من ذوي الخلفية الطبية .. نم نم نم نم .. متطوعون لغرض ورشة عمل .. نم نم نم نم .. عواصف دماغ Brainstorming .. نم نم نم نم .. بروفيسور (بوريس سيماكوف) الباحث الرئيسي في المشروع .. »

- « كم طبيباً يريد ؟ »

عاد يقرأ الورقة من جديد مما دلني على أن تركيزه ضعيف :

- « مممم .. اثنان .. »

لم أنتظر حتى أفهم .. فقط جلست على طرف مقعدي حتى صرت أقرب إلى الوقوف وصحت :

- « لماذا لا ترسلني و (برنات) ياسيدي ؟ أنا في حاجة جمة للتغيير .. »

نظر لي مفكراً بعض الوقت ، ثم قال :

- « أرسلك أنت ؟ »

- « و (برنات) .. »

- « و (برنات) ؟ »

فلو كنت أقل تهذيًا لقلت له إنه لا يتقاضى راتبًا
كي يجلس هنا ويردد ما أقول .. بعد صمت طال قال :

- « دعني أفكر في الأمر .. »

نهضت وأنا على وشك أن أجثو على ركبتى
متوسلاً :

- « د. (سينوريه) .. لو كان عليك أن ترسل أحدًا
فاتننى أتوسل إليك أن أكون هذا الواحد .. لاحظ أنني
لم أر (نيروبي) تقريبًا .. »

- « سأرى ما يمكن عمله .. »

وغرق في مزيد من الأوراق فرأيت أنه من الوقاحة
أن أكرر إلحاحي .

2- في نيروبي ..

كنت مشكلتي مع إفريقيا من البداية هي أنني ظلمت دومًا
نلقيًا عن العواصم والمدن الكبرى .. دومًا أنا في بلدان
صغيرة بعيدة .. أقرب إلى القرى ، لهذا اكتسبت طباع القروى
الساذج الذى يبهره بريق المدينة ، والذي لا يصدق أن
هناك مبانى شاهقة وطرقًا نظيفة وسيارات وطائرات .

إن (نيروبي) عاصمة ضخمة تحبس الأنفاس ..
ويمكنك بسهولة أن تعتقد أنك فى (لوس أنجيليس)
أو (ميونيخ) لولا أن من يحيطون بك سمر
البشرة ..

كنت و (برنات) نقطع الشوارع مذعورين ..
نتعثر فى خطواتنا من كل هذا الضجيج وإيقاع الحياة
السريع .. بعد أشهر من الحياة فى مكان مغلق
لا ترى من نوافذه إلا الأدغال وقرى (الكيكويو) ،
تغدو الحياة فى مدينة مشكلة حقيقية ..

طبعاً من الواضح لك الآن أن المدير قبل إرسالنا في تلك المهمة العلمية ، وقد احتاج إلى أسبوع كي يحزم أمره لكن العبرة بالنهايات كما ترى ..

إن (نيروبي) هي عاصمة البلاد ، وقد أنشأها البريطانيون عام 1890 كمحطة ربط على خط القطار الشهير (مومباسا - أوغندا) .. و(مومباسا) لمن لا يعرف هي أهم ميناء في البلاد ..

أقيمت (نيروبي) فوق أراض رعوية كان الماساي يعيشون فيها .. وقد صارت عاصمة البلاد الرسمية عام 1963 ، وإن عانت من اضطرابات مختلفة وحروب أهلية في تسعينات القرن العشرين ، بسبب ارتفاع نفمة المعارضة ضد الرئيس الكيني (دانييل موي) .. في الحقيقة أين هي الدولة الإفريقية التي لاتعيش تلك الاضطرابات منذ الاستقلال في الستينات ؟ أو كما يقول الأمريكيون : أليسوا كذلك جميعاً ؟

من للناحية الجغرافية للبحثة ، هي مدينة مرتفعة .. ربما نحو ألفي متر فوق سطح البحر ، لذا تعد من المدن

الباردة فعلاً .. وهو درس قاس لواحد مثلي يعتبر أن زيارة أي بلد إفريقي تغني أن يحمل معه قميصين قصيرى الأكمام لا أكثر ..

سبق لي أن قلت إنها أقيمت في أعجب مكان يمكن أن توجد به مدينة .. إنها ترتفع عن مستوى البحر كثيراً ، لكنها في موضع منخفض بالنسبة للهضاب المحيطة بها ، وبالتالي هي معرضة لسيول المطر التي تنصب عليها في موسمي الأمطار .. أي في صيف مصر وخريف مصر ! ويقال إن هذا كله بسبب حماقة مهندس أخطأ في حساباته وهو يضع أساس هذه المدينة ..

لسوف تلاحظ أن النشاط الأساسي للمدينة كلها هو السياحة .. السياحة نشطة جداً في (نيروبي) ، وفي كل موضع تجد مكاتب تنظيم رحلات (السافاري) .. لكن (السافاري) ، لم يعد يعنى صيد الوحوش ولكن مشاهدتها وتصويرها ..

ولا غرابة في هذا ، لأن (نيروبي) بها أعظم محمية

طبيعية للحيوانات .. حيث يمكنك أن ترى وحوش الغاب تمارس حياتها بحرية تامة .. سوف تجد كذلك المتحف القومي وهو محترم برغم صغره .. وتجد مكتبة (ماكميلان) التذكارية وقاعة الكونسرفتوار ..

على لثني و (برنادت) لم نر هذا كله ، لأننا قضينا ليلتنا مرهقين في غرفة تم حجزها مسبقاً في أحد فنادق المدينة .. كان فندقاً فاخراً على كل حال ..

في الصباح كان علينا أن نذهب إلى الجامعة كي نقابل البروفسور (بوريس سيماكوف) .. هذا هو الاسم الوحيد الذي نملكه .. والحقيقة أنني حتى تلك اللحظة لم أفهم قط ما إذا كنا متطوعين لدراسة ما ، أم مشاركين فيها ، لكنني فقط كنت أعرف أن أمامنا عشرة أيام على الأقل لا نرى فيها ذات الوجوه ونمشي في ذات المواضع ..

كانت (برنادت) منتعشة ، وشعرت كأنها طفل صمم على أن يستمتع بما يقوم به ..

سألتها في لحظة صفاء ونحن نمشي في الشارع المزدهم :

.. « هل أنت راضية عني ؟ »
ابتسمت ولم تقل شيئاً .. فعدت أسألها :
.. « راضية ؟ »

لم ترد .. ثم بعد دقيقة صمت قالت :

.. « لماذا تفسده بالكلام عنه ؟ هناك أشياء تبتذل قيمتها بتحويلها إلى كلمات .. ولكن أين ذهبت تلك الجامعة ؟ »

الحقيقة أنه كان سؤالاً سخيفاً لأننا كنا واقفين أمامها بالضبط ..

كان مكتب الدكتور (ويليام سوبا) صغيراً ضيقاً لكنه مريح .. وقد أحسن استقبلنا ، ثم جلس إلى أحد المقاعد أمام المكتب لا خلفه كي يشعرنا بالألفة .. كان رجلاً

ممثلًا شديد السواد أقرب إلى القصر ، وله ابتسامة
أسرة كابتسامات الأطفال .. خاصة أنها تبدو كتقب
أبيض يتسع في وجهه الأسود ..

قال لنا بينما هو يخرج من ثلاجة صغيرة بعض
علب المياه الغازية :

- « جئنا مسافة لا بأس بها .. لكنني أعتقد أنكما
ستحبان المناخ هنا .. »

قلت له وأنا أنظر لـ (برنات) لأرى إن كنت قد
أخطأت في شيء :

- « في الحقيقة ياسيدي ما زلت عاجزا عن
الفهم .. هل نحن سائحان أم ضيفان هنا ؟ هل نحن
منتدبان للمساهمة في البحث العلمي أم لإجراء تجارب
علينا ؟ »

ثم ابتسمت وقلت في كياسة :

- « والسؤال الأهم هو .. من أنت ؟ لقد جئنا هنا
لأننا سألنا عن الدكتور (بريس سيماكوف) .. »



قال لنا بينما هو يخرج من ثلاجة صغيرة بعض علب المياه
الغازية : - « جئنا مسافة لا بأس بها .. »

ضحك كثيرًا ، ثم قال :

- « هذا سؤال من حقك .. أنا رئيس قسم علم النفس هنا .. أنا لست طبيبًا لكنى باحث فى أسرار النفس .. والبروفسور (سيمكوف) ضيف عزيز علينا ، لكنه ليس صاحب البيت .. إنه يدير المشروع بينما أنا المنسق الكينى لكل شئ .. »

- « لم أعرف جواب الشق الأول من أسئلتى .. »

- « هل أنتما متطوعان أم باحثان أم ضيفان ؟ الحقيقة هى أنكما خليط من هذا كله .. »

ووضع ساقًا على ساق وقال :

- « أحب أن تفكرا فى الأمر باعتبارها لعبة أطفال مسلية ، تلعبانها بضعة أيام ثم تعودان إلى بيتكما مع الشكر .. »

هنا تكلمت (برنات) لأول مرة .. وكان سؤالها نكيًا كالعادة .. (برنات) لا تسأل أسئلة غبية إلا فيما يتعلق بمكان الجامعة :

- « من الغريب أننا أجنبيان عن (كينيا) .. فهل هذا شرط مهم للعمل ؟ »

- « إلى حد ما .. لكن هذا الطراز من الأسئلة يوجه له لالى »

- « هل هناك آخرون ؟ »

- « حوالى عشرة .. كلهم - كما لاحظت أنت - من جنسيات غربية مختلفة .. لدينا فرنسيون وألمان وياباني وأمريكي .. الآن أضفنا مصر وكندا إلى القائمة .. »

هنا دق جرس الهاتف فرفع السماعة وأنصت باهتمام ، ثم قال لمحدثه :

- « ليكن .. نحن قادمون .. »

ثم نظر لنا وابتسم :

- « لرى أن تفرغا من الشرب سريعًا ، لأن البروفسور (سيمكوف) ينتظركما .. »

لم يكن معمل دراسات (الباراسيتولوجى) مبهرًا بشكل خاص .. ليس هناك هنود ممن يمارسون اليوجا ولا توجد مقاعد تتحرك لو خطر هذا ببالك ..

إن علم (الباراسيكولوجى) - أو (ماوراء علم النفس) - هو علم يتعلق بدراسة الحواس التى نملكها ولا نعرف أننا نملكها .. وهى حواس غير تلك الخمس المعروفة لنا .. خذ عندك الحاسة السادسة والسابعة والثامنة .. إلى ما شاء الله ..

هى حواس يقال إنها كانت عندنا جميعًا ثم تقررست بفعل التمدين .. كما جعلت أضواء المدينة المبهرة من المستحيل عليك أن ترى النجوم كما كان يراها أجدادنا .. ترى منذ متى نظرت للشمال ورأيت وعاء لللب الأكبر واضحًا صافيًا ؟ لابد أن هذا كان من قرون ..

يطلقون على علم دراسة تلك الحواس اسم (باراسيكولوجى) .. هواة التحذلق منا يعرفون أن (بارا) بادئة يونانية معناها (جوار أو وراء) .. و (سايكولوجى) هو علم النفس طبعًا ..

وكعادة الأمريكين فى تدليل كل شىء واختصاره ، يتحول اسم (باراسيكولوجى) إلى Psi .. وأحيانًا يطلقون عليه اسم ESP أى (الإدراك الفائق للحواس) ..

هذه علوم - فيما أراه - لا تنو من الصحة والأهمية .. لماذا يدق الهاتف حين تفكر فى صديقك ويتضح أنه هو ؟ لماذا تختنق الأم وتتقبض حين يجرح ابنها فى ميدان الحرب ؟ لماذا تشعر بالهجوم على ظهرك من قبل أن يحدث ؟

هذا ما أعرفه عن الموضوع ، وعلى كل حال لم أكن يومًا من المهتمين بهذه الأمور ، وأشعر بأنه علم غير قابل للقياس والتكرار والتفسير ، لهذا أتجاهله كلية .. لكنى أعرف أن السوفييت اهتموا به كثيرًا ، ولهذا من الطبيعى أن نجد هنا طبيبًا روسيًا - لم يعد سوفييتيًا طبعًا - يهتم بالأمر ..

ونكن ما قصته ونماذا لختار (كينيا) بالذات ؟

هذا ما سأعرفه بعد قليل ..

كما قلت لك كان المختبر مخيئاً للآمال .. بل هو أقرب إلى مختبر الكيمياء الحيوية العتيق في كليتي .. هناك قفصان فيهما بعض الفئران (لا بد أن هذا مصدر الراحة) .. وقفص أكبر فيه كلب تعس .. وثمة مجموعة من الأجهزة للتيقة التي تذكرك بلجهزة رسم القلب أو - إن كنت تهوى الأقلام الأمريكية - جهاز كشف الكذب ..

لما عن البروفسور (بوريس سيماكوف) فهو الذي يقف وسط هؤلاء الخمسة .. إن له مزية مهمة جداً هي أنه لا يمتاز بأي شيء على الإطلاق .. ليس وسيمًا وليس قبيحًا .. ليس أنفه عملاقًا وليس دقيقًا .. ليس ضخماً ولا ضئيل الحجم .. نظراته غير ثابتة لكنها كذلك ليست خابية .. هل هو أتيق ؟ لا أعرف .. مجرد سترة رمادية مفتوحة من تحتها كنزة سوداء عالية الرقبة .. وجهه حليق تماماً وبلا عوينات .. حتى لون عينيه كارثة لأنها مزيج من الأزرق والرمادي والأخضر والذهبي والأسود .. الخلاصة أنه كان مشكلة حقيقية لرسم الشرطة الذي سيحاول تكوين صورته

من أقوال الشهود ، بعد ارتكاب (سيماكوف) جريمة قتل ..

أضف لهذا أن ذلك الشعور غير مريح على الإطلاق .. أنا تعاملت مع أحط أنواع البشر لكني أجد التعامل معهم أكثر راحة من التعامل مع هذا الإنسان الأميبا الذي لا شكل له ..

كانت تقف جواره فتاة لابس بجمالها ، لكنها تحمل طابعا عمليا (سوفييتيا) خشنا إلى حد ما .. وأنباتني أسناتها وتجاعيد وجهها أنها مفرطة في التدخين ..

- « (كاتيا شلوندروف) .. مترجمة من (موسكو) .. »

قاتتها بالفرنسية وصافحتني بيد خشنة قوية أشعرتني بأنني فتاة رقيقة هشة .. ثم صافحت (برنادت) بقوة أكبر ، ونظرت إلى البروفسور الكبير الذي رسم على وجهه ما يشبه ابتسامة ، وقال أشياء على غرار :

- « زدراست فوى تى .. تافاريش .. خاراشو ..

للخ .. الخ .. »

قالت لنا بذلك الطريقة الرسمية الجافة كأنها في
الأمم المتحدة :

- « بروفيسور (سيماكوف) يرحب بكم في هذا
المعمل الصغير ويتمنى لكم أن تستمتعوا بهذه الفترة
الوجيزة التي ستمضونها معنا .. »

قالت (برنادت) وهي تفك أصابع كفها التي التصقت
ببعضها بعد المصافحة :

- « تشرفنا .. لكنني كنت أفضل لو بدأنا الكلام بدلاً
من الرسمية .. »

بدأت الفتاة تقدم لنا مجموعة الواقفين .. طبعاً
حين انتهت لم نكن نذكر اسماً واحداً .. فقط فهمنا أن
هؤلاء هم زملاؤنا في التجربة وهم من جنسيات
متعددة ..

- « مجموعة من الأشخاص لهم عدد من الوجوه
والأسماء » .. هكذا قلت لنفسي .. ووجدت أن هذه
النتيجة كافية جداً وتلخص كل شيء ..

لكن مازالت هناك عدة أسئلة أشعر بأن الحياة
ستكون أكثر إشراقاً لو عرفت إجاباتها :

- 1- لماذا كينيا بالذات ؟
- 2- لماذا غير الكينيين بالذات ؟
- 3- ما هذا الذي سنقوم به ؟



3- هؤلاء الرجال العظام وتجاربهم الغامضة ..

هذا العنوان مقتبس من فيلم أجنبي بالغ الشهرة ، ولا يعنى بحال أتى أعتبر هؤلاء القوم عظاماً .. ربما أعرف هذا فيما بعد ، أما اليوم فأنا فضولى لا أكثر ..

كنا جالسين الآن إلى منضدة صغيرة فى المصل على شكل حلقة نصفى إلى ذلك الروسى ، وهو يكلمنا عن طريق المترجمة .. وقد بدا لى واضحاً أن الآخرين لم يسبقونا بمسافة طويلة .. إذن لم يفتنا شيء تقريباً ..

قال لنا وسط حلقات الدخان التى تبعثها لفافة تبغ المترجمة التى فهمت أنها لا تفارق شفيتها :

- « أنا أستاذ علم نفس زائر هنا فى (كينيا) ولى جدولى للتدريس الخاص ، لكنى حملت معى اهتماماتى الخاصة من (موسكو) .. لا أحاول أن أدعى المجد أو الشهرة ، لكنى من علماء الباراسيكولوجى المهمين فى وطنى .. وأنتم تعرفون التجارب الجادة الصارمة

التي تم إجراؤها عندنا على تحريك الأجسام عن بعد (سايكوكينيزيس) والتخاطر (تليپاثى) .. أبان الحرب الباردة قيل إن الاتحاد السوفيتى يملك كتيبة من قارئى الأفكار بعثهم فى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية .. حسن .. لن أعلق على هذا .. لكنى كنت قريباً جداً من هذا المشروع .. »

- « بعد انهيار الاتحاد السوفيتى تدهورت حالة السلك الجامعى المالية ، وشعرت بأن على أن أجرب حظى فى بلدان أخرى تحتاج إلى علمى ويمكنها أن تنفع جيداً .. وهكذا استقر بى الحال فى جامعة (نيروبي) ، وبرغم الصعوبات اللغوية الجمة فإتنى استطعت أن أنجح وأن يكون لى تلاميذ متفوقون .. »

للمرة الأولى نطقت (برنادت) :

- « هل تلقى محاضراتك مع الترجمة ؟ »

نقلت له المترجمة هذا السؤال فقال :

- « لا .. إن لغتى الإنجليزية سيئة جداً لكنها مفهومة .. »

أنا الآن أستعمل الروسية من أجل مزيد من اللغة
الطفلة التي تعبر عن أفكارى أكثر»

ثم عاد إلى الموضوع :

- « قمت للمرة الأولى بإنشاء مختبر للبراسميترولوجى ،
وهو نشاط غير مألوف فى هذا الموضع من
العالم .. لكن نظريتى كانت هى أن الإدراك الفائق
للحواس أكثر تطوراً لدى الأجناس البدائية من
البشر .. أو بعبارة أخرى لنقل إن صدا الحضارة لم
يغط تلك الحواس بعد .. إن القط يشعر بدنو الزلازل
وبالحرائق ، ربما لأن الحضارة لم تطغ على حواسه
المرهفة .. ورهائى كان على أن الإنسان البدائى
يملك هذه القدرات مثل القط بالضبط .. وقد وقع
اختيارى على قبائل الكيكويو التى - برغم أنها ليست
بدائية تماماً - تعطى فكرة لا بأس بها عن الإنسان
البكر الذى لم يفسد حواسه التلفزيون والكتب وعادم
السيارات .. »

- « لم يكن الأمر سهلاً لكنى حصلت على نتائج

مهمة جداً .. هنا تبقى مشكلة العلم التقليدي .. لا يمكن
أن أقول إن (إيفان) قسیر القامة أو طولها ما لم
تكن عندى فكرة واضحة عن القامة المعتدلة .. أنا
بحاجة إلى مجموعة قياسية من البشر المعاصرين ..
البشر الذين تعلموا وذهبوا إلى المدرسة وعرفوا
للكاميرا والسينما وقادوا السيارات وقرءوا الصحف ..
هنا خطر لى أن أستقدم مجموعة من الأطباء من
جنسيات مختلفة لكنهم ليسوا من الأهلى هنا .. يمكن
القول إن الطبيب هو النموذج الأفضل للحضارة
المعاصرة التى حجبت للنجوم عن أعيننا .. تشاورت مع
وزارة الصحة وقد سمحوا لى باستضافة بعضكم ،
وأعتقد أن لحكم لم يأت هنا إلا بكامل إرادته الحرة .. »

- « بكامل إرادته الحرة » .. هذا هو أسلوب مصلصى
الدماء .. يقال إنهم لا يمتصون إلا دماء من جاعوا
على أقدامهم بكامل إرادتهم الحرة ، وهم يحبون دوماً
أن يتأكدوا من هذه النقطة .. طبعاً - فى القصص -
ينهبون شتى أنواع الحيل كى تلتهم الضحية بإرادتها ..
أو ما تحسبه إرادتها ..

قالت (برنات) باسمه :

- « إذن نحن هنا لأن الحضارة أفسدتنا وأتلفت حواسنا .. »

- « بالضبط .. هذا هو ما أعنيه .. »

- « وما المطلوب منا بالضبط ؟ »

- « هذا هو موضوع التجارب التي نبذلها حالياً .. »

- « حقاً يا إخواني كان الأمر أقرب إلى لعبة .. وقد بدا أن الجميع مستمتعون بوقتهم .. وتصاعدت ضحكات لا توحى على الإطلاق بأن هذا معمل .. »

بالتأكيد يحق للناس أن ينظروا إلى هذه الأبحاث بشيء من الشك في جديتها ..

قال لنا البروفسور عن طريق مترجمته :

- « إن حاسة الـ Psychometry أو (القياس للنفس) هي موضوع أبحاثنا .. وهي حاسة محترمة ويستخدمها

رجال الشرطة كثيراً جداً .. وأكثر الدراسات تقدر أنها موجودة بالفعل لدى سبعة أشخاص من كل عشرة .. سميت بهذا الاسم لأن الطبيبين (يوكاتان) و(دنتون) قالوا إنها الحاسة التي تعطيك القدرة على قياس الوجود النفسي للأشياء الجامدة .. هذه الحاسة تتعلق بقدرتك على استخلاص معلومات عن جسم مادي بمجرد لمسه .. لو كان من الصحيح أن لنا هالات إكتوبلازمية ، فإن بوسعنا أن نترك أجزاء من ذواتنا على ما نلمسه .. وموهبة (السايكومتري) تتعلق بقدرتنا على معرفة هذه الأجزاء .. يقال إن الأجسام المعدنية تتمتع بكفاءة خاصة في الاحتفاظ بمعلومات عن يلمسها^(*) .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة في القاعة إلى أقصى حد لها ، وقال بصوت رتيب :

- « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

(*) طبقاً كل المعلومات والتمارين الواردة في هذا الكتاب حقيقية

الخطوة الأولى هي التنفس باسترخاء .. لا أعرف أهمية التنفس في هذه التجارب لكنها جميعاً تصر عليه .. والتنفس باسترخاء يعنى أن تأخذ نفساً بالأنف وتحبسه لثوان ، ثم تخرجه من الفم ببطء ..

بعد هذا وضع في يد كل من الجالسين جسمًا معدنيًا (قلمًا أو مفتاحًا) وقال :

- « اقترح أن تضعوا الشيء في اليد اليسرى ، لأن الطاقة تدخل الجسم من الناحية اليسرى وتغادره من الناحية اليمنى »

ثم طلب منا أن نتحلى بالصبر ولا نفقد هدوءنا .. على كل منا أن يحاول تحرير عقله وأن يستحضر ما يراه في ذهنه .. سوف تتشكل صورة وعلى كل منا أن يصف هذه الصورة في مفكرة صغيرة ..

ومر الوقت ببطء ، وبدأ البعض يدونون ما رأوه .. ماذا أراه ؟ لا شيء .. شعرت بخجل من نفسي كلتنى في امتحان الثانوية العامة أجلس بلا عمل ، بينما كل من حولي يكتبون بلا انقطاع ..

بدأت أرسم بعض الخطوط على المفكرة ، ثم وجدت أن هذه الخطوط توحى بشكل معين .. يبدو أن الحيلة ناجحة .. بدأت أوصل الخطوط في حلقة .. وفي النهاية وجدت نفسي أهدق في صورة لا بأس بها لخنزير !

مرت ساعة كاملة ، ثم نهض (سيماكوف) وراح يجمع الأوراق والأجسام المعدنية من أيدينا :

- « لا بأس .. ممتاز .. لا بأس .. سيئ .. »

بهذه العبارات راح يصحح لنا أوراق الامتحان بشكل سريع .. وظفرت (برنات) بـ (ممتاز) فالتفتت لى وكورت أنفها بطريقة (التشنكية) الشهيرة كأنما هي طفل نال أعلى درجة في الإملاء ..

وصل الرجل لى فتناول الورقة ونظر إلى ما عليها .. ثم تقص وجهه في اشمزاز وغيط وواصل الجولة .. هنا تذكرت .. إنه هو على الأرجح أكثر من لمس المفتاح الذى كان في يدي ، وبالتالي ليس من الإلهام الموفق أن لرى خنزيرًا في عقلى الباطن كلما لمست هذا المفتاح !

فى النهاية وقف أمامنا وقال عبر المترجمة :

- « هذه هى تمارين اليوم الأول .. بعضكم يملك الحاسة لاشك فيها .. وبعضكم لا يملكها على الإطلاق .. »
- وهنا نظر لى نظرة لا تخفى على أحد - « علينا أن نتذكر أن الروى التى رأيناها قد لا تكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. وقد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدا .. سنواصل العمل ولن نينس .. أراكم غدا فى التاسعة صباحا فى نفس المكان .. »

بعد انتهاء التجربة وثبت (برنات) كطفل مرح ، وهتفت :

- « هل رأيت ؟ إن عملنا هنا سيكون نزهة ! كان هذا هو كل المطلوب منا اليوم !! إتنى أهيم حيا بهذه التجارب التى لا معنى لها ! »

- « وماذا رأيت فى غيوبة (التراس) التى مررت بها ؟ »

ضحكت وقالت بلهجة تمثيلية :

- « رأيت امرأة .. رأيت امرأة عجوزا كأنما جاءت من الأبدية .. وكانت لها ثلاث أسنان ناقصة .. »
- « وكتبت هذا ؟ »

- « وصفت المرأة بالتفصيل كأنما أراها .. لا بد أن هذا المفتاح الذى كان معى كان يخص خالة (سيماكوف) العجوز .. ربما كانت تغلق به المطبخ كى لا يسرق المربى ! »

ثم تركتنى ولحقت بالواقفين كى تتبادل معهم الأحاديث المرححة ..

وأركت من الأحاديث أن هناك تلاميذ فاشلين كثيرين ، لكنى العبقرى الأوحى الذى رسم خنزيرا ، سيمر وقت طويل إلى أن يتوصل علم (الباراسيكولوجى) إلى أن يفهمنى ..

4- الآن نرجوكم الصمت ..

فى الصباح التقينا وتبادلنا الابتسامات .. كان هناك نوع من المودة قد سرى بيننا .. كان الموجودين أطباء لكنهم ليسوا من (سافارى) .. أكثرهم يعملون فى (كينيا) مع جهات حكومية أخرى ..

وقال لى الطبيب الأمريكى الوحيد بينهم :

- « هل رأيتم (نيروبي) جيداً ؟ »

قلت له :

- « ليس بعد .. كنا نظن أننا سنكون منهمكين .. لكننى الآن بدأت أعتقد أن لدينا من الوقت ما يسمح بدراسة كل حجر .. »

ضحك .. وبدأ لى شخصاً ودوداً .. كنت أومن دوماً أن كل أمريكى شخص لطيف طلق بسيط حين تتعامل

معه وحده .. لكن حين يجتمع أكثر من شخص لتتكون منهم (دولة أمريكية) فإن الأمور تختلف ..

دخل البروفسور مع مترجمته ليقول لنا :

- « دلو بروى لوترا »

ثم بدأ يشرح لنا أن درس اليوم يتعلق بمملكة النيات ..

- « سأعطى كلأ منكم صخرة من الطبيعة .. سيمسك بها كل واحد فى يده ويغمض عينيه .. ليتخيل أنه جزء منها .. ليتخيل أنها حقيقته الحالية .. لينظر بعينى الحجر .. ليفكر مثله .. إنه قطعة من ذاتك ، ويمكنك أن تتعلم كيف تحركه .. بل يمكنك أن تحركه لو أردت هذا حقاً !! لكن من فضلك لا تفقد أعصابك ولا تثتم الشئء لأنه لا يستجيب .. اسأله عن الناس .. عن الأشجار .. عن الكون .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة فى القاعة إلى أقصى حد لها ، وقال بصوت رتيب :

- « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

ودارت علينا المترجمة تقم لكل منا صخرة .. تبادلت
(برنادت) نظرة باسمه لها ألف معنى ، ثم أمسكت
الحجر وبدأت أثّر معه ذهنيًا ..

يجب أن أنظر بعيني الحجر ..

يجب أن أفكر مثله ..

يجب أن أحركه حقًا !

- « اكتبوا ماترون وما تشعرون وما تسمعون .. »

مضت بضع دقائق على هذه التجربة ثم بدأ البعض
يدونون ما رأوه .. كالعادة لم يكن لدى ما يقال لهذا
كتبته في الدفتر :

- « هذا الحجر ثقيل .. ثقيل .. »

وظللت أكرر لفظة (ثقيل) حتى ملأت الصفحة ..

انتهى الزمن الأصلي للامتحان ، وراح المراقب يمر
لينزع الأوراق من أيدينا مع عبارات من طراز :
جيد .. رديء .. متوسط ..

فلما رأى ورقتي لم يقل شيئًا على الإطلاق ..
وواصل جولته ..

- « أنظر بعيني الحجر وأفكر مثله ! » كم بقي من
الوقت على مستشفى الأمراض العقلية إذن ؟

هنا سمعت البروفسور يقول بالروسية ومترجمته
تترجم :

- « أنت تتمتعين بموهبة لا شك فيها »

نظرت إلى تلك الموهوبة فوجدت أنه يتكلم مع
(برنادت) ! إذن الخبيثة تملك إدراكًا فائقًا للحس !
وكانت هي تتنظر لي في خبث طفولي باعتبارها تفوقت
على بشكل واضح ..

كنت لنفسى : لا بأس . إن كان الفشل في هذا الاختبار
يعني أن الحضارة قد غطت مواهبى فإتني لفخور بهذا
الفشل .. وإلا لكان التفوق حليف أي محارب من
قبائل (البوشمان) يرقص حول النار ..

سبعة من كل عشرة يملكون هذه الموهبة .. أنا
الثامن أو التاسع أو العاشر .. حقًا إتني لعقري !

وحين جلست جوارى همست فى أنفها :

- « أرجو ألا يتضمن الدرس التالى التهام اللحم
النئى لتحديد نصيبك من الحضارة .. »

قالت ساخرة :

- « هذا اختبار للشفافية .. وقد نجحت فيه وأنت
رسبت ! »

ولكن كانت أمامها بضعة أيام قبل أن تتكلم عن
النجاح أو الفشل ..

- « درسنا اليوم يتعلق بمملكة الحيوان .. »

ومرت علينا المترجمة التى لا تفارق لغافة التبغ
شفتيها حتى إننى بدأت أحسبها زائدة خلقية يمكن
إزالتها بجراحة دقيقة .. مرت علينا وهى تحتضن
مجموعة من الجراء الصغيرة اللطيفة .. تلك الجراء
التي لا تعرف عن الكون إلا أنه المكان البارد الذى
يجعلها ترتجف .. ولم تكن هناك مشكلة فى التعامل

معهما حتى لكارهى الكلاب ، لأنها كانت أقرب إلى
دمى أطفال ..

تساءلت همسا :

- « هل حان وقت درس التهام الجراء ؟ »

هنا علا صوت المترجمة تتقل لنا تعليمات
الدرس :

- « ضع يديك على الجرو .. انقل له بذبذبات يديك
رسالة من الحب والسلام والحنان .. لسوف
يفهمها .. ركز تفكيرك كما فى المرات السابقة
واستقبل ما يقول .. خذ منه كل شيء .. لسوف تتعلم
منه الكثير .. »

ثم رفع يده وأمر مترجمته بأن تخفض الإضاءة
فى القاعة ، وقال بصوت رتيب عبارته المعتادة :

- « الآن .. نرجوكم الصمت .. »

وهكذا بدأت جلسة المخابيل هذه .. أعرف أن

(السايكومتري) علم ، لكنى لا أقبل هذا النوع من العلوم .. من يدرى ؟ يبدو أننى عملى أكثر من اللازم ..

وتوالت التجارب يوماً بعد يوم ..

حتى وصلنا إلى عملية قراءة البشر .. المفترض أن يجلس اثنان متواجهان ويغمضان العيون ويمسك كل منهما بيدي الآخر ويفكر .. ياسلام ! لا أجد فرقاً هنا بين التجريب العلمى والهيام .. لهذا ولأسباب لا تخفى على أحد أصررت على أن تكون زوجتى (برنادت) هى رفيقتى فى هذه التجربة ..

وهكذا جلسنا متلامسى الأيدي ، ورحت أركز تفكيرى .. لكنى لم أصل لشيء .. كان ذلك الخنزير الأبدى يطارد أفكارى طيلة الوقت ! وأدركت أنه تحول إلى نوع من الوسواس القهرى الذى لا يأتى إلا حين لا أريده .. أما هى فراححت تبتمم فى خبث مغمضة العينين .. ماذا فى ذلك ؟ أنا لا أملك أية أسرار لا تعرفها .. ليس لدى مزاج ولا بال رائق

يسمحان لى بأن ألعب دور الرجل الغامض اللعوب كما يحب كل الأزواج أن يفعلوا مع زوجاتهم .. حتى الرجل الذى يشبه خلد الماء ، والذى لم تعجب به أية امرأة إلا المرحومة أمه .. يصر على أن يبدو أمام زوجته كأنه (دون جوان) الذى تاب أخيراً ..

لماذا تبتمم إذن هذه الخبيثة ؟

قالت وهى تواصل التأمل :

- « أنت تحبنى ولا تعباً بأية امرأة أخرى .. أنت (رجل امرأة واحدة) كما يقول الإنجليز .. هذا مؤكد .. »
- « ماكنت لأحتاج إلى هذا (السايكومتري) لاكتشف ذلك .. »

- « وتفكر فى الخنزير كالعادة !! »

هنا ارتجفت .. ربما كانت مصادفة هى تعرف هاجس الخنزير الذى يطاردنى طيلة الوقت ، لكن كونها تقول هذا الآن فقط جعل شعرمفرقى يتصلب ..

كانت الاختبارات التالية في أغلبها تدور حول
كيس معلق ..

كانت المترجمة النشيطة تدور علينا كأنها تتسول ،
وكانت تطلب من كل منا أن يدس في الكيس شيئاً
دون أن يعرف الآخرون ، ثم بعد ما تنهى الجولة ،
تعود وتطلب من كل منا أن يأخذ شيئاً عشوائياً من
الكيس .. عليه بعد هذا أن يتأمل ..

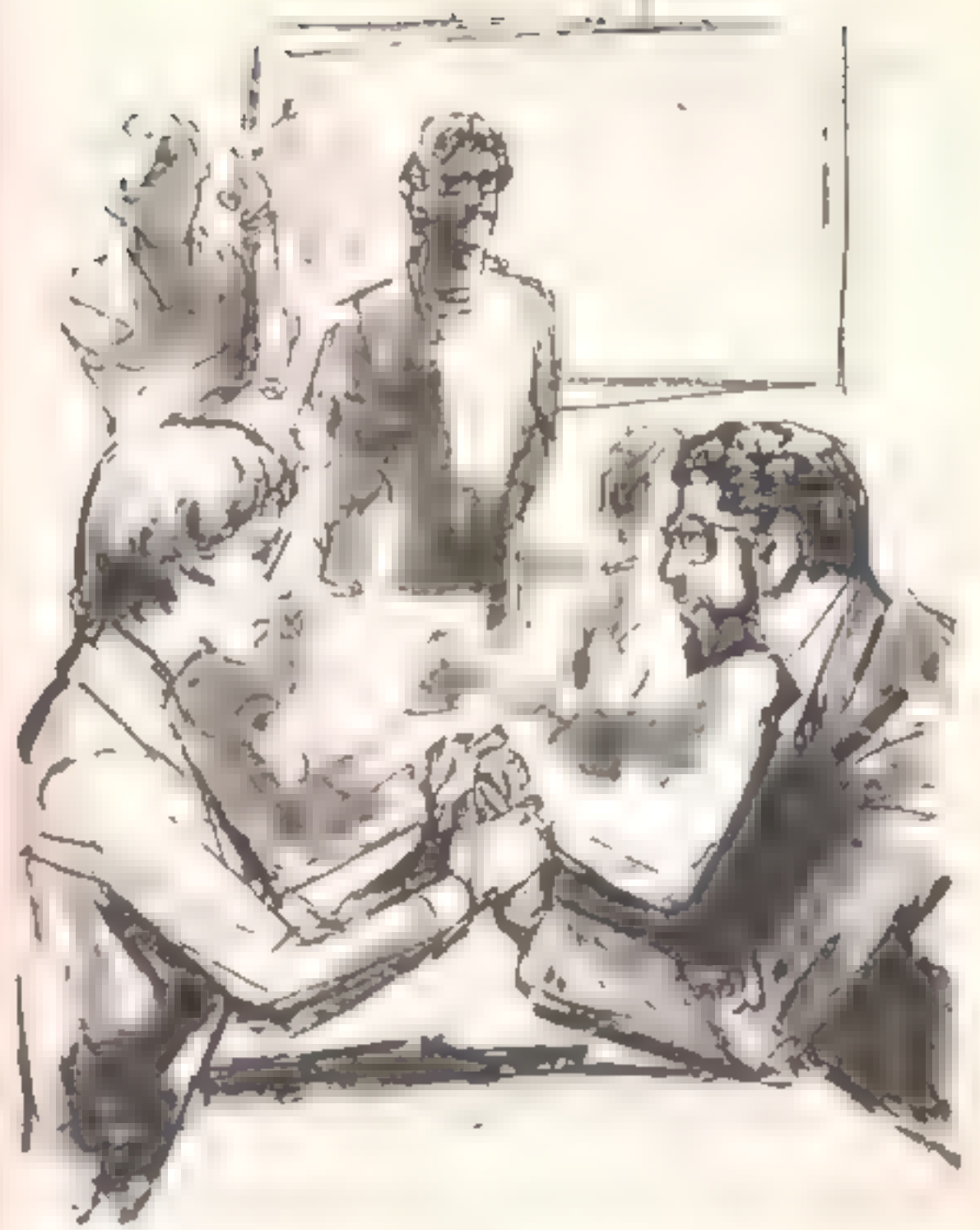
« الآن نرجوكم الصمت .. »

يعلمها الروسي مدوية ، وتهدا الأضواء ، بينما
يتحسس كل منا الشيء الذي في يده محاولاً الاستزاج
به .. التفكير مثله .. مشاهدة رؤى معينة ، وهذا
الرؤى لها ارتباط مهم بصاحب الشيء ..

راح كل منا يدون ما شعر به ، ورأيت (برنات)
تكتب في حماسة .. وأنا الآخر كتبت الكثير جداً ..

في النهاية دارت المترجمة علينا تقرأ ما كتبناه ..
ثم تسأل وهي تلوح بالشيء :

« من صاحب هذا القلم ؟ »



لماذا تبسم إذن هذه الحبيبة ؟ - قالت وهي تواصل التأمل
- « أنت تحبني ولا تعبا بأية امرأة أخرى .. »

قلت في حجل :

- « السبب بسيط هو أن هذا القلم قلمي ! لقد وضعته
في الكيس ثم عاد إلى بالصدفة ! »

طبعاً لا داعي لاستكمال المشهد .. كما أنه لا داعي
لحكاية ما حدث في الأيام التالية ..

فقط بعد أسبوع آخر أعلن البروفسور أنه انتهى
من كل التجارب وأن بوسعنا العودة لقواعدنا ..



ترتفع يد تقول إنه لها ..

- « هل هذه الرؤى تعنى لك شيئاً ؟ »

أحياناً تكون الرؤى واضحة مثل صاحب القلم
نفسه يكتب به .. وأحياناً تكون غامضة نوعاً مثل
منظر في الريف في يوم مطير .. وأحياناً لا تكون
للرؤى علاقة بأي شيء على الإطلاق ..

وجاء دوري فراحت تقرأ ما كتبت :

- « أرى صاحب هذا القلم يبتاعه بنصف دولار
من متجر في (نيروبي) .. أراه يكتب به ثلاث
رسائل ثم يفقده .. ثم تجده ممرضة في مستشفى
فتسأل عن صاحبه وتعيده إليه .. إلخ .. إلخ .. »

قصة حياة قلم كاملة على الورق ، ونظر لي
الجميع باتبهار .. فهذه أوضح رؤى اليوم ..

قال البروفسور الذي يفهم الإنجليزية :

- « ماسر هذه الشفافية المفاجئة ؟ اعتدت أنك
معتم كالرصا ص .. »

سألته عن نتائج البحث فقال بإنجليزية رديئة
كالعادة :

- « ليس بعد .. ليس بعد .. أحتاج إلى دراسات
إحصائية ، ولاتنس أن العينة قليلة جداً بحيث يصعب
أن تستخلص نتائج منها .. إتني أكرر العمل ذاته منذ
عام .. »

ثم ابتسم بخبت وأردف :

- « ما زلت أحتفظ لنفسى بالحق فى استدعاء أى
واحد منكم متى أردت ! »

سألته وأنا أتخذ لنفسى مقعداً :

- « هل تقيس قدراتنا أم تدريبها ؟ »

- « الاثنان معاً .. إن المنحنيات ترتفع للجميع من
تجربة لأخرى .. ربما باستثناء قليلين لا يبنو أن لديهم
أى مستقبل فى عالم الإدراك الفائق للحواس .. »

كنت أعرف واحداً على الأقل من هؤلاء القليلين ..
لهذا تحاشيت الموضوع بسرعة ، وعدت أسأله :

5- عن القياس النفسى ..

كان جالساً إلى الحاسب الآلى فى المعمل ، حين
دخلت إليه فى ذلك اليوم .. كنت مبكراً عن الآخرين ،
وقد طلبت منى (برنات) أن أسبقها لأنها تتبادل
حديثاً مرححاً مع طبيبة كندية أخرى .. فوجدت
(سيماكوف) وحيداً ، ورائى لى هذا برغم أننى غير
مهتم بالموضوع ككل .. لكنى تذكرت النشوة التى
كنت أشعر بها فى طفولتى حين أذهب للمدرسة آخر
العام لاكتشف أننى الأحق الوحيد الذى لم يبق فى
داره ليستذكر .. عندها كنت أجد المدرس وحده ..
المدرس المهيب الذى يفصلنى عنه حاجز دقم لا يزول ..
اليوم هو أمامى وملكى وحدى !!

كانت الكتابة على الشاشة بالروسية ، لهذا لم أفهم
شيئاً .. لكننى حييته بالـ (داو بروى أوترا) التى
حفظتها .. فرد التحية بمثلها وواصل العمل ..

- « أريد أن أعرف أكثر عن هذا (السايكومتري) .. »

ضحك في عصبية بصوت غليظ اعتقد أنه خاص بالروس دون سواهم ، وقال :

- « من الخطأ أن يعرف الشخص موضع التجربة تفاصيلها .. هذا يلعب دور الإيحاء .. »

- « لا تنس أننا علمون إلى بيوتنا ولم نعد مواضع .. »

هنا دخلت (كاتيا) المترجمة المختبر ، وهي تحمل بعض الأوراق .. فتتهاد وأشار إليها وقال شيئاً ما ، فوضعت أوراقها جانباً وأشعلت لفافة تبغ وقالت لي :

- « إن البروفسور يطلب مني أن أترجم ما سيقول فهذا سيجعل الكلام أسهل .. »

- « وأنا أرحب بهذا .. فأنا أرحب في الفهم »

أغلق النافذة التي أمامه على الحاسب الآلي وبدأ يتكلم ..

قال (سيماكوف) :

- « كما قلت لك فإن حاسة الـ Psychometry أو (القياس النفسي) سميت بهذا الاسم لأن الطبييين (بوكتان) و(دنتون) قالوا إنها الحاسة التي تعطيك القدرة على (قياس) الوجود للنفسى للأشياء الجامدة .. هناك شيء يدعى (السجلات الأكلشيه Akashic records) .. وهي موضوع كبير معقد لن نخوض فيه ، لكننا نفترض أساساً أن حجراً من العصر الروماني قد رأى وعرف كل شيء عن الرومان .. وكان رهان الفلاسفة دوماً على أن خبرات هذا الحجر يمكن أن يتلقاها الجهاز العصبي للإنسان ويفسرها .. »

- « بعبارة أخرى .. لا شيء يختفى أو يضيع .. إنما يترك بصمة لا تمحى على الأثير إلى الأبد ... »

- « هذه النظرية أيضاً تفترض أن لكل شيء حياة روحانية خاصة به .. من ثم تنتقل مشاعر الشخص إلى الشيء الذي يمتلكه .. وهذا الشيء يمكن أن ينقل هذه المشاعر إلى شخص ثان يلامس الشيء .. »

- « هكذا يعمل الجسم المادى كجهاز إرسال واستقبال معاً .. »

- « لقد رأيت تجربة غريبة حدثت أمامى .. إذ أحضر أحدهم قطعة من القماش الذى كفتت فيه مومياء مصرية قديمة ، وقدمها للوسيط الذى وضعها على جبهته .. فجأة راح يصف مدينة فرعونية ورجلاً فى زورق يبحر فى النيل .. لاحظ هنا أن الوسيط لم يكن يملك أية فكرة عن مصدر قطعة القماش ... »

- « قال (بوكاتان) إن التساء يمكن القابلية أكثر لامتلاك خاصية الـ (سايكومتري) واعتبرها موهبة خاصة .. بينما اعتبرها من يدعى (كراوتار) شيئاً يمكن لكل إنسان أن يمتلكه إذا امتلك الرغبة والإرادة .. »

سألته وأنا أشعر بأن الأمر كله رخو لين يسيل من بين أصابعى :

- « وما هذا الشيء الذى يشعه المرء فيصل للجماذ ؟ »

- « يسمونها aura^(*) ويعتقدون أنها تشع من كل عقل فى كل اتجاه .. وبما أنه لا يوجد جسم صلب تماماً (أنت تعرف أن هناك مسافة بين ذرة وأخرى) فإن هذه الفجوات تتشرب الـ aura من الأشخاص الذين حولها .. »

قلت له فى غيظ :

- « هذا الكلام لا يمكن إثباته .. إنه نوع من الشعر فهل تعتبره حقائق علمية ؟ »

قال فى برود :

- « أنا أحكى لك آراء يابنى ولا أقول شيئاً عن رأيى الخاص .. ورأى الخاص لو أردته هو أن هذه التجارب قابلة للقياس والتكرار لكنها غير قابلة للتفسير .. وهذا يتناقض مع تعريفات التجربة العلمية الصحيحة التى يجب أن تكون قابلة للتكرار والقياس والتفسير معاً .. »

(*) الترجمة الحرفية لها هى (الشذى) أو (العبر) لكن هذا لا يعبر عن معناها جيداً ..

.. « لقد أطلق (كراوتار) على السايكومتري اسم (عين الروح) .. وقال إن مركز هذه العين هو الجسم الصنوبري في المخ الذي كان يؤدي عمله ببراعة قبل أن تجعله الحضارة يضرر .. ولهذا يطلق بعض العلماء عليه اسم (العين الثالثة) .. »

- « بقي أن تعرف أن هناك وسطاء يعرفهم رجال الشرطة بالاسم ، ويثقون بكلامهم .. وقد استطاع كثيرون منهم معرفة القاتل من منديله أو مديته .. كما وجد كثيرون منهم قبوراً لأشخاص اختفوا دون أثر .. »

هنا قررت أن أسأله سؤالا كان يخرجني بعض الشيء :

- « وكيف أنت في الإدراك الخارق للحواس يا سيدى ؟ »

ضحك حين وصلته الترجمة وقال :

- « أستاذ لنقد الأبنى في جامعة موسكو لا يستطيع

كتابة بيتين من الشعر .. ومدرّب فريق البرازيل قد لا يستطيع تسديد ضربة جزاء سهلة .. أنا أدرس ظاهرة لا أستطيع التعامل معها .. بلختصار أنا لا أملك أية قدرة على الـ PSI »

قلت في خبث :

- « إذن أنت تملك قدراً هائلاً من التحضر ! »
وساد الصمت

ثم بدأت فتران التجارب تدخل ..

بعد دقائق لحشنا في مقاعنا حول الرجل .. صار هذا المشهد مألوفاً أن ترى الرجل جالساً إلى المكتب ، بينما المترجمة تقف وراءه مستندة إلى الجدار ولقافة التبغ بين شفطتها .. كانت لها عادة أخرى أنها لا تتفصّل الرمال ، مما يجعلها تبدو كأن قلماً من الرمال في فمها .. وهي تترجم دون أن تنظر له بل تنظر لنا بحدة ..

قال لنا :

- « اليوم يمكنني القول إن التجربة انتهت .. وهي

ليست بالضبط تجربة بقدر ما هي درس في استخدام
حواسنا .. لهذا أتمنى أن تكتبوا لي وأن تذكروا ما تعلمتموه
جيداً .. لاحظوا أن هناك احتمالاً لا بأس به أن استدعى
أحدكم لاستكمال الدراسة .. هناك ثغرات دائماً .. »

تأفف أحد الأطباء بصوت عال ، وقال :

- « لم لا تنتهي كل شيء الآن وننتهي ؟ ليس من
السهل أن نقطع حياتنا كلما أردت أنت .. »

قال البروفيسور حين وصلته الترجمة :

- « أنت بالذات اطمئن .. لن أطلبك أبداً .. ليس
لديك ما تمنحنيهِ ! »

ضحك البعض في عصبية .. ثم قل له أحد الجالسين :

- « لم نعرف بدقة من يتمتع منا بالموهبة ومن
لا يتمتع بها .. »

ابتسم الروسي وقال بطريقة الممتدة :

- « إن صاحب الموهبة يعرف ذلك الآن دون شك
وهذا يكفيني .. »

ثم أشار إلى (برنات) وقال :

- « هذه هي الأولى على الصف .. هذا يكفي في
الوقت الحالي .. »

احمر وجهها خفراً وغمضت بشيء لا بد أنه يعني :
ليس إلى هذا الحد .. أو ليس كما تظنون ..

قلت لنفسى إنه لا بأس .. على كل حال أنا وهى
شخص واحد قاتونا وشرعاً .. يكفي أن يتمتع أحدهما
بحواس خارقة للحس بينما الآخر غيبى كالسلحفاة ..

المشكلة الوحيدة هنا هي أن على أن احتاط لأفكرى من
الآن فصاعداً ! صحيح أنني لا أفكر فى شيء يضايقها
لكن من أدرأتى ؟ عندها تكفى لمسة واحدة ليدى كى
نعرف كل شيء .. من يدري ؟ ربما كان على كذلك
أن لمسح الـ aura من على أقلامى ومفاتيحى وعويناتى .

ترى هل يكفي لإزالة الـ aura أن أنقع حاجباتى فى
بعض الخل ؟!

6- في (سافاري) ..

كانت عودة مبهجة ..

للحقيقة أن هذا هو الحل السحري للملل من حياتك ..
اتركها - حياتك - كما هي وابتعد بعض الوقت ، فإن
كانت خبرتك مبهجة نسيت همومك ، وإن كانت كئيبة
أدركت كم كانت حياتك رائعة .. وفي الحالين تعود
منتعشا كهرة تصحو من نومها ..

في البداية كانت التحيزات ، ثم قيل لي إن (سينوريه)
ينتظرنا بفارغ الصبر في مكتبه ..

دخلنا وتبادلنا المزاح الثقيل مع السكرتيرفت ، وجرعت
جرعة عملاقة من كوب القهوة الذي أمام (جين) ،
وهررت ما فطنت بأن القهوة مفيدة لمرض الإيدز الذي
أصبت به ، ثم ألقيت بنفسي في المقعد أمام لأمدير ، الذي
راح يسألنا عن كل شيء .. كان بطبعه نهما للمعرفة ،
وقد راقى له هذه التجربة لأنه من المؤتمنين بوجود
مستوى آخر من الطب لم يدون في الكتب ..

قال لي :

- « أعرف عن بعض تجارب السايكومتري ، كما
أنني قرأت اسم (سيماكوف) في أكثر من ورقة
علمية .. لكنه لم يتكلم فيها إلا عن الطب النفسي .. الطب
النفسي المحترم .. ولو تكلم عن هذا الكلام المانع في
ورقة علمية لما نال إلا السخرية .. »

كنت لصدقه .. فهو مرجع طبي يمشي على قدمين ..
إنه مثل (آرثر شيلبي) و (جيديون) وإن لم يكن
استعراضيا هستيريا كالأول ، ولا يهوديا غريب
الأطوار يكره نفسه والجميع مثل الثاني ..

قلت له :

- « أمام العلم الكثير حتى يجد فائدة ما لهذه الأمور .. »

ابتسم في غموض وقال :

- « ليس كما تتصور .. لو أن لدينا طبيبا بارعا
في هذه الأمور لأمكننا أن نجرب .. »

ضاحكاً أشرت إلى (برنات) :

- « لم تنتظر وعندك وسيطة ممتازة هنا ؟ »

قالت (برنات) في خفر :

- « ليس إلى هذا الحد .. »

- « بل إلى هذا الحد .. إن الدكتور (عبد العظيم)

قد برهنت عن إدراك فائق للحس لاشك فيه .. »

- « إلى هذا الحد ؟ »

قالها وهو ينظر لها في تركيز شارد الذهن ، وأدركت

أنه يفكر في استغلال هذه الموهبة بشكل ما ..

في النهاية قال لنا :

- « أريد أن نلتقى في عصر الأمراض الباطنة

غداً .. ثمة أشياء أريد أن أعرفها بدقة .. »

(ماجدة بوبو) .. في الأربعين من عمرها .. لم لثلاثة

أطفال وكانت دوماً تتمتع بصحة جيدة ، ثم بدأت الحمى

مجهولة المصدر .. في كل ليلة ترتفع حرارتها حتى

التسعة والثلاثين درجة مئوية .. لا توجد أعراض

أخرى .. صورة الدم عادية .. التحليلات المعروفة

بحثاً عن الملاريا والكالا آزار والتيفويد والدرن ...

إلخ .. كلها سلبية .. حالتها تزداد سوءاً .. وكل

حمى تسبب هزاً واضحاً في المحموم إذا طالت ..

يتلقى المريضة الآن علاجاً امبريقياً غريباً يصلح لأن

يكتبه لها فنان سريالي مثل (سلفاتور دالي) أو مجنون

في مصحة يضع كسرولة مقلوبة على رأسه .. إنها

تتلقى علاجاً للخراج الكبدي الأميبي والملاريا والتيفويد

والدرن .. إلخ ...

طبعاً هي لا تتحسن .. لا يمكن أن يشفى شخص

يتلقى هذا الخليط الجهنمي ..

سياسة المستشفى الحالية هي وقف جميع أنواع

العلاج والسماح للمريضة بالعودة لدارها .. أحياناً

تشفى هذه الحميات تلقائياً ..

الخلاصة هي أن هذه الحالة كانت مسماراً في
نعش الإمبراطورية .. معذرة .. أعنى نعش ثقفتنا
بمعلوماتنا الطبية ..

وأمامها وقفنا نصغى لكلمات (سينوريه) بينما
كان هناك طبيبان مقيمان يراقبان ما يحدث ..

قال (سينوريه) :

- « الأمر الآن في يدك .. لا أطلب تشخيصاً لكن
أطلب توجيهاً .. ستخبريننا عن اتجاه النور في نهاية
التفق .. هل هو من الشرق أم الغرب أم الشمال ؟ »

قالت (برنادت) بوجه محمر :

- « سيدى .. أنت تبالغ .. لا أملك هذه القدرة ولا أتق
بأن أحداً يملكها .. »

- « لهذا لن نعالجها بناء على تكهناتك .. لكننا
سنضعها في الحسبان .. »

في تردد تتقدم (برنادت) .. تجلس أمام المرأة ..

تنظر في عينيها الواسعتين البيضاءويتين وسط وجهها
الأسود .. للمرأة شفتان غليظتان تتفرجان عن تأوه
صامت ..

تهمس (برنادت) :

- « ليكن .. الآن أرجوكم الصمت .. »

ثم تفض عينيها وتمسك بيد المرأة ..

- « علينا أن نتذكر أن الروى التى رأيناها قد لا تكون
بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. قد لانفهمها
للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض
عنها الصدا .. سنواصل العمل ولن نئس .. »

يسود الصمت وتبادل النظرات .. عرفت أكثر من
نصاب كان يمارس هذه الأفعال والحركات من قبل ..
في مصر زارنا طبيب فليبينى يجرى استئصال المرارة
وحصوات الكلى من دون جراحة .. فقط يمرر يده

على بطنك ثم يريك المرارة الملوثة بالدم في كفه ..
وبعد ما قبض لتعالجه الخرافية وسافر ، علوت الأعراض
مرضاه فأجروا الفحوص اللازمة .. ماذا تتوقع ؟
بالطبع كانت المرارة موجودة في كل مريض كما هي ..

لاستطيع أن ألق بهذا الضرب من العلاج ولا أؤمن
به .. لكن للقوى النفسية موجودة وحقيقية .. وبالفعل
يمكن لمحاولات كهذه التي يمارسها (سيماكوف) أن
تقبض على القطة .. فهل يمكن أن تقبض على المرض ؟

مرت دقائق ثم فتحت (برنادت) عينيها .. وتخلت
بدها عن يد المرأة ..

همست كأنما تصحو من نعاس طويل :

- « رأيت .. رأيت ظهرها واضحا أمامي .. رأيت فقراته
فقرة فقرة ثم توارى كل هذا .. غاب في ضباب .. »

قال أحد الأطباء المقيمين وكان بريطانيا :

- « هذا مثير .. أي جزء من الفقرات ؟ »

نظرت له برنادت لتتأكد من أنه لايتهمك ، ثم قالت :

- « فقرات الصدر .. »

قال (سينوريه) وهو يعقد ذراعيه على صدره :

- « هل أجريتم مسحاً للهيك العظمي ؟ لا ؟ لماذا
لا ترتبون لواحد ؟ »

قال أحد الطبييين وهو ينظر للآخر في نظرة شك :

- « ستفعل يا سيدي .. »

أما (جون جارلونج) فهو شاب في الثلاثين من
عمره .. لا شيء يميزه سوى اكتئاب حاد عنيف
مصحوب بنوبات جنون .. نعم .. جنون لأنه هشم
عظام زوجته وألف ابنه في ثورة غضب غير مفهومة ..
لا يمكن أن يكون الطقس الحار هو السبب ..

قال الأطباء النفسيون إنهم لا يعرفون سبباً لهذه
الحالة ، ويخيل إليهم أنه يعاني مرضاً عضوياً ما أدى
لهذه النتيجة .. ما هو المرض العضوي ؟ لأحد يعرف ..
إن أكثر الفحوص سليمة تماماً .. وفيما عدا انخفاضاً
ملحوظاً في ضغط الدم فإن كل شيء على ما يرام ..

وتجلس (برنات) فى تردد على طرف الفراش ،
وتتظر فى عيني الرجل الخائفتين .. إنه واهن القوى
لكنى ظللت قلقاً من أن تتأبه نوبة هياج مفاجئة
فيهشم ألقها بدورها ..

أمسكت بيده وهمست طالبة الصمت فصمتنا ..
وراحت تتلقى الـ aura من مسام جلده ...

همست فى أذن (سينوريه) :

- « لو رأنا رئيس مجلس إدارة (سافارى) لرقص
طرباً !! »

ابتسم بدوره وغمغم :

- « بالتأكيد .. سيعتقد أننى حولت الوحدة إلى خيمة
حواة .. لكن لاحظ أننا لن نتخذ قرارات بناء على
كلامها .. لو أفادتنا لكان هذا خيراً وعلينا أن نثبت
كلامها بالطريقة العلمية الصحيحة .. »

فى النهاية رفعت رأسها وقلت بصوت مبحوح قليلاً :

- « هذا صعب .. لا أرى شيئاً .. »

ثم فجأة أغمضت عينيها من جديد :

- « لحظة .. نعم .. أرى كليته .. أرى كتلة سوداء
شريرة فوقها ... »

قلت فى غباء :

- « لا أفهم .. »

هتف (سينوريه) وهو يحك رأسه :

- « (أيسون) .. مرض (أيسون) .. إنها تتحدث عن
ضمور الغدة فوق الكلوية .. لم يخطر لنا هذا ببدا .. »

ثم أشار إلى الطبييين أمراً :

- « أريد نسبة (الكورتيزول) فى دم هذا الرجل ..
أريدها حالاً »

وبعد رفيقة أشار إلى (برنات) كى تتبعنا خارج
العنبر .. سألته ونحن نتجه إلى الخارج :

- « لحظة ياسيدى .. هل يوجد مرض (أيسون)
من دون كل الأعراض والعلامات المعروفة ؟ »

- « إن ضغطه منخفض .. ثم لا تتم أنه لا يوجد شيء واضح أو شفاف في الطب .. لو أنك رأيت عشرين حالة تيفويد فلسوف ترين عشرين شكلاً مختلفاً من المرض .. وقد تصرف مرض (أديسون) بهذه الطريقة الغامضة أكثر من مرة .. ثم إن ظاهرة اسوداد اللون لا يمكن قياسها في مريض زنجي أصلاً ! »

نظرت إلى (برنات) وشعرت بأنني أشفق عليها من أن تتحول من طبيبة بارعة إلى عرافة منكوشة الشعر ، تلبس عشرات العقود حول عنقها ، وتحقق في بلورة سحرية .. ربما يفيد بعض المرضى من هذا ، لكنني لن أفيد منه خاصة وأنه من المستحيل أن تمارس هذا النشاط العجيب من دون أن تتغير .. حتماً ستتغير والويل لي أنا ..

لكنني اعترفت أنها لم تتغير ، ولم يبد عليها على الإطلاق أنها عرفت تجربة كنتك التي مررنا بها ..

هكذا مرت الحياة هادئة مع تلك العزيزة الباسلة .. تعرفون أنني لم أكن ملاكاً طيلة الوقت ، وأن الخلافات كانت تحدث من حين لآخر ، لكن لو نظرت للصورة الإجمالية من بعد - حتى تختفي البقع السوداء الصغيرة - لأكرمت أننا كنا سعيدين حقاً ..

واصلت أنا حملتي الرهيبة مع مرض (كالا آزار) ، وواصلت هي علاج الأطفال .. لكننا كنا نعرف أن الوقت قد دنا وأنا سنعود إلى (الكامرون) قريباً .. وقد رسمت (برنات) مجموعة من المربعات عددها تسعون على لوح من الورق ، وكلما مضى يوم كانت تسود مربعا .. ورحنا ننتظر في لهفة يوم تسود المربعات كلها .. إنها طريقة (روبنسون كروزيه) معدلة قليلاً .. فهذا الأخير كان يرقب تراكم الأيام في جزع ، أما نحن فنرقب تناقصها في لهفة ..

ويوم عرف (سينوريه) بهذا النشاط اليومي الصغير ، قال لي ضاحكاً :

- « لم أدر أنك تكرهنا إلى هذا الحد ..

- « ليس إلى هذا الحد .. »

- « لكن دعني أخبرك بشيء مهم ، لا تقض حياتك بانتظار أن تنتهي الفترة كذا والفترة كذا .. أن تنتهي فترة الدراسة .. أن تنتهي فترة التجنيد الإجباري .. أن تنتهي فترة انتدائك في (كينيا) .. إلخ .. لسوف تجد أن حياتك صارت مجموعة من الفترات يجب أن تنتهي .. وهوب ! تكتشف أنك بلغت نهاية العمر ولما تنعم بحياتك يوماً واحداً .. »

لم يرق لي كلامه .. لم يرق لي لأنه أدق من اللارم .. لذا سألته :

- « وماذا تريد مني أن أفعل ؟ »

- « يجب أن تستمتع بكل فترة كأنها هي الصورة الوحيدة النهائية لحياتك .. »

إنه كما عرفت دائماً خليط عجيب من شاعر وفنان وطبيب .. لكنني فعلاً - وهذا يثير ذكري - فقدت القدرة على الاستمتاع بالحياة .. أجمل لحظة في اليوم

بالنسبة لي هي نهايته .. يبدو أنه كان لدى جهاز استقبال خلقه الله لي .. جهاز استقبال لمتع الحياة ، وهذا الجهاز قد فسد أو انتزع مني ...

رباه ! هذه خواطر لن أخبر بها (برنات) أبداً لأنها لا تخلو من إهانة لها باعتباري غير قادر على الاستمتاع بشيء حتى وهي معي ..

مالم تكن طبقاً تملك الأفكار ذاتها !

ومالم تكن طبقاً قد خمنت ما أفكر فيه بهذا القياس النفسي !



7 - من فعلها ؟

لا بد أن (دانييل كينياتا) لم يتألم كثيراً ..

هذا يريحنا على الأقل إلى حد ما ..

تخيل أن تتلقى ضربة قوية على رأسك بآلة كاتبة ثقيلة من الطراز القديم !! لا وقت للألم لأن مركز الألم نفسه تهشم على الأرجح .. هذا الانتقال الفوري إلى العالم الآخر قد لا يكون ألماً ..

ثم إن قديميه فقدنا القدرة على التماسك فهو على الأرض .. ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ..

يمكننا الآن - لو أغمضنا عيوننا - أن نرى المشهد كالتالى :

حارس الأمن الأسود بقميصه الأزرق الملوّث بالعرق يمشى فى الممر الطويل .. يمر أمام مكتب المدير الذى يفترض أن يكون مغلقاً الآن فى الساعة

الثالثة صباحاً .. لكنه الآن موارب .. ليس مفتوحاً لكنه موارب ..

يمد يده المتوترة إلى الباب ، ويفتحه أكثر فيرى ضوء الكشاف يتنقل بين قطع الأثاث فى غرفة السكرتيرات الواسعة ..

هنا يقرر أن هناك شيئاً ليس على ما يرام .. إن رجال الأمن أنكباء دوماً ..

وهكذا يفتح الحجر صارخاً :

- « من هناك ؟ »

لا بد أنه قالها بالسواحلية لأنه لا يتكلم الفرنسية .. لكن الصوت والنبرة يؤديان الغرض على كل حال ..

بالطبع لم يكن مسلحاً .. كان يحمل هراوة وسلطته فقط .. ليس كرجال الأمن فى (مافارى - 4) الذين تعلموا أن الممدس والمسروال شيء واحد ..

هنا حدث الشيء المتوقع .. انطفأ الكشاف ..



وإذ راح يبحث عن مفتاح الإضاءة الكهربى فى
الظلام بالطبع لم يجده .. لأحد يجد المفتاح وهو
متوتر بهذا الشكل الخطير ..

لكن شيئاً فاتته ، هو أنه كان يقف أمام الباب
الموارب .. أى أن هيئته كانت واضحة على شكل
(سلويت) فى الضوء القادم من الخارج ..

ولابد أنه لم يجد الوقت الكافى ليفهم ، لأن المتسلل
حمل الآلة الكاتبة الثقيلة .. الآلة الموضوعة على
مكتب (جين) ، والتى لم تستعملها منذ مائة عام ..

لابد أنه رفعها بكلتا يديه ..

لابد أنه هوى بها على رأس رجل الأمن .. وعلى
الفور اختفى اسم (دانييل كينيوتا) من لسماء مواطنى
(كينيا) ليدخل قوائم الوفيات ..

هذا هو كل شيء .. ولابد أن المتسلل غادر
المكان ملهوفاً قبل أن يراه أحد آخر ..

★ ★ ★

لابد أنه رفعها بكلتا يديه لابد أنه هوى بها على رأس رجل
الأمن

حين غادرنا غرفتنا في الصباح كانت هناك حركة
غير عادية في الوحدة ..

قالت (برنات) في عدم فهم :

- « ماذا يحدث هنا ؟ »

قلت بلا مبالاة وأنا أغلق الباب :

- « حدث شيء ما .. هذا مؤكد .. ونحن لا نعرفه .. »

- « أنت عبقري اليوم .. »

ولما لم يكن لنا شأن بالموضوع فقد تصرفنا هي
إلى قسم الأطفال ، بينما اتجهت أنا إلى مكتب المدير
لأعرف ما إذا كان علي أن أمارس عملية البحث
المبدئية اليوم .. وكنت أكره هذا بشدة ، وأفضل
لو تركني وشأني لأذهب إلى قسم الجراحة ..

لكنني كنت بالفعل أدخل إلى قلب الزحام نفسه ..

رجال شرطة عديدون وأطباء وضوضاء وزحام ..
ثم في النهاية رأيت المبرر الوحيد لهذا كله .. المحفة

التي تتحرك بما عليها من جسد مغطى بملاءة .. هذا
واحد يغادر غرفة المدير (بالقنمين أولاً) كما يقولون
في التعبير الشائع كناية عن الموت ..

مقط قبي في قمي وهرعت لأقف جوار طبيب فرنسي
يراقب المشهد وهو يلوك اللان :

- « ماذا يحدث ؟ »

- « هناك قتل .. »

- « من ومتى وكيف ؟ »

- « رجل الأمن (دانييل) .. حدث هذا ليلاً .. أما
عن (كيف) هذه فما مبرر كل رجال الشرطة هؤلاء
إنهم ؟ »

ووسط الزحام بدا لي وجه (سينوريه) الممتقع
وهو يتبادل الكلام مع رجل شرطة كيني .. لقد تحقق
أصوأ كوابيسه ..

اقتربت منه أكثر واستطعت أن أسمع طرفاً من

الأحداث .. أما عن كيفية اكتشاف الجريمة فعاملة
النظافة طبقاً .. يبدو لى أن أكثر جرائم القتل
تكتشفها عاملات النظافة ..

قال لى (منيوريه) وهو يشق طريقه بين الزحام
من حوله :

- « جريمة قتل .. »

- « أعرف ياسيدى .. لقد قيل لى هذا عشر
مرات .. »

- « لقد فاجأ السارق .. ودفع حياته ثمناً لهذا .. »

هذا مهم .. إذن الأمر يتعلق بلص .. لص ضابط
متلبساً ووجد نفسه مرغماً على أن يخفى جريمة
السرقه بجريمة قتل .. هذا يحدث كثيراً ، والأرجح أن
اللص كان فى حالة من الانفلات العصبى التام .. كان
يريد الخروج من هذا بأى ثمن ..

هنا تذكرت :

- « هل سرق شيء يا سيدى ؟ »

- « لم يتسع الوقت .. لقد فر قبل أن يمس شيئاً .. »

- « وهل لديك هنا ما يصلح للسرقه ؟ لا أحسبه
تسلل كى يسرق مقعداً أو حاسباً آلياً .. »

كنت أعرف أنه لا توجد أموال طائلة فى مكتبه ..
إن تعاملات هؤلاء القوم تتم بالشيكات وبطاقات
الائتمان .. إلخ ... بحيث لا يمكن أن تتوقع أن تجد
كيساً مزيئاً بالدولارات أو تجد رواتب الوحدة كلها
لو خطر لك هذا ببال ..

ابتلع ريقه ونظر بعين زائغة إلى المحطة التى
تبتعد .. ثم قال :

- « يوجد شيء .. وهو على قدر من الأهمية ،
لكن من يعرفون بوجوده قليلون .. أعتقد أن المتسلل
كان يعرف .. »

- « هذا يضيق دائرة البحث كما يقولون فى
القصاص .. »

- « ربما .. ربما ؟ »

هنا لنا منه أحد رجال الشرطة الكينيين ، وقال له
وهو يجلف عرقه :

- « سيأتى رجال من (نيروبي) للبحث .. لكننا لن
نجد بصمات على الأرجح .. »

- « هذا طبيعى .. الكل يلبس قفازات هذه الأيام ..
تباً للمبتدئين ! »

ثم إن (سينوريه) نادى نائبه، وهو طبيب تركى
يدعى (مصطفى نصار) كان يعمل مع (ستيجوود) ..
ورأيته ينتحى به جانباً ويتبادل معه حواراً هامساً
سمعت منه بعض العبارات للموحية :

- « اسمع .. لا قبل لى بهذه المشكلة .. كل هذه
التفاصيل .. يجب أن تتولى أنت الأمر .. أرملة
الحارس .. التأمين .. انقل ما يلزم ليكون مكتبى إلى
غرفة أخرى مادام البوليس قد احتل هذه بالكامل .. »

سمعت هذا كله وشعرت بالشفقة عليه .. الشاعر
الرومانسى والرسام للحلم مطلب بأن يلعب دور المدير
الحازم الخبير بالتفاصيل .. اعتقد .. ولا تصبى لمزح -

أنه كان يفضل أن يستقيل فى هذه اللحظة بالذات ..
فلو ترك وشأنه لأعلن للجميع أن (مصطفى) هو المدير
الجديد ، ثم اتجه إلى مسكنه لينام ..

أخيراً لم أر ما يدعو إلى الوقوف فتصرفت أسفاً ..
يبدو أننى حر اليوم لأفعل ما يروق لى .. وما
يروق لى هو شيء واحد : الجراحة ..

كنت أتناول طعام العشاء فى الكافتيريا مع (برنات)
وطبيبة كندية أخرى ..

كنت قد حكيت لهما ملخصاً لما حدث فى ساعات
الليل .. وقد توترت (برنات) لأقصى حد فقد كانت
تعرف (دانييل) وتستريح إليه ..

قلت لى فى حيرة وقد أراحت طبقها معلنة أن
شهيتها صارت نكرى :

- « وما هذا الذى فى مكتب المدير والذى يستأهل
للسرقة ؟ »

- « لا يوجد سوى احتمال واحد .. »

هنا نظرت في حذر إلى الطبيبة الكندية وفضلت الصمت ..

ثم حركت شفتي دون صوت بالكلمات الأولى من الرد ..

هنا ظهر شخص مألوف على باب الكافتيريا ، وكان متجهًا نحونا ..

هذا (سينوريه) .. لقد بدأ المرح .. إن قدومه إلى الكافتيريا لحدث جلل يستحق الذكر .. من المعتاد ألا ترى المدير في الكافتيريا مع الرعاع من أمثالنا .. لكن (سينوريه) على ما يبدو مصمم على أن يكون بين البروليتاريا الكادحة ..

نهضت مرحبًا به ، ودعوته إلى الجلوس معنا ، لكنه هز رأسه في عصبية غير راغب في الكلام ، وقال بصوت ثابت مخاطبًا (برنادت) :

- « المريضة (ماجدا) التي رأيته أمس .. ثمة

فقرة من ظهرها قد تحلت من جهة الشوكة تمامًا ، وقد وجدنا بروتينات (بنس جونس) في بولها .. وهذا يعني .. »

قلت في دهشة :

- « سرطان النخاع المتعدد Multiple Myeloma ..
يا للغرابية ! هذا لم يخطر لنا ببال »

نظر إلى (برنادت) في إعجاب لم يخفه وقال لها :

- « أنت رأيت ظهرها في خيالك .. وبالتالي فكرنا لأول مرة في مسح عظامها .. كان السرطان في بدايته فلم يعلن عن نفسه إلا بالحمى .. ولولاك لربما كنا أعدناها إلى دارها .. »

قالت (برنادت) وقد احمر وجهها كالصلصة :

- « كان الأمر سيتضح .. وما كان ليظل سرًا ..
إن آلام الظهر سوف

- « متأخرًا جدًا .. كنا سنعرف متأخرًا جدًا .. »

قالها وجنب مقعدًا ليجلس وقد شعر بأن الكلام
يحتاج إلى جلسة بدلاً من وقفة ..

هنا سألته في تردد :

- « والفتى .. هل هو ؟ »

- « ماذا تتوقع ؟ هناك انخفاض شديد في نسبة
الكورتيزول في دمه .. لقد دمر الدرن غدته فوق
الكلوية تمامًا .. إنه مرض (أديسون) بالفعل وإن لم
يظهر منه بعد إلا بعض الأعراض النفسية الشبيهة
بالجنون .. والواقع أننا حمقى .. الجميع حمقى .. كان
لدينا ارتفاع في نسبة البوتاسيوم ونقص في الصوديوم ،
لكننا لم نهتم بما يكفي بهذه النتيجة .. »

ثم نظر إلى (برنات) من جديد وأشرق وجهه وهتف :

- « أنت كنزيا صغيرتي !! »

كان الأمر صعب الابتلاع بالنسبة لي .. لقد تحولت
(برنات) إذن إلى وسيطة نفسية موثوق بها ..
زوجتي التي أعرفها كنفسى تحولت إلى امرأة غامضة ..
ربما مخيلة كذلك ..

قلت له في غيظ لم أخفه :

- « سيدى .. إن العلم لا يعتمد على الروى وأساليب
الوساطة هذه .. »

ضرب المنضدة بقبضته وهتف :

- « أعرف هذا أكثر منك .. لكن هذه الأساليب
للسخيفة قد أثقت مريضين ! مريضين وأنا لست من
مدرسة الطب المتعصب الذي يفضل أن يموت المريض
بعلاج صحيح على أن يشفى بعلاج خاطئ .. لا تنس
أن (برنات) اقترحت فقط ونحن بحثنا عن الحقيقة
بالطرق العلمية المجربة .. »

ثم نظر لها في إعجاب من جديد وقال :

- « بعدما تنتهيان من العشاء أريدكما في مكتبي .. »

ودون أن يسألني رفع عبة المياه الغازية التي
تخصني وشرب جرعة منها ، ثم حملها معه وانصرف ..
ولم أكن أعرف أن مشاكلنا على وشك البدء ..

* * *

8- التجربة ..

ذهبنا إلى المكتب نجر أقدامنا ..

في الحقيقة لا أشعر بأية رغبة في أن نتورط أكثر في هذا الموضوع .. لا أرغب في أن يعتبر أحد (برنانت) مجرد وسيطة نفسية أو معالجة روحانية .. هي طبية بارعة ولا يجب أن تكون شيئاً آخر ..

دخلنا لنجد أن مكتب السكرتيرات قد تحول إلى فوضى ، وهذا متوقع طبعاً .. كان هناك أربعة رجال شرطة وأشياء مقلوبة ومبعثرة ... يبدو أنهم رفعوا البصمات كلها ، وبالتالي لم يعد مسرح الجريمة ساخناً ..

بقعة دم ! بقعة دم أسود لونها هناك على البساط جعلت أحشائنا تتقلص ..

غريب أمر الدم حقاً .. إنه سائل مفعم بالرموز ..

نحن نراه طيلة الوقت في عملنا .. لكن هناك أكثر من دم .. الدم النبض في العروق رمزاً للصحة والحياة .. والدم الملقى في إهمال على الأرض يشي بالموت .. ثمة دم نوجده بأنفسنا في غرفة الجراحة ولا يحرك فينا ساكناً ، ودم يوجده غيرنا ونشمئز منه كالأخرين ، خاصة حين لا يعود بوسعنا أن نعمل شيئاً ..

قال لنا المدير حين رأنا :

- « آه ! فرغتما من الطعام ؟ جميل جميل .. تعاليا .. »

كان يتكلم وهو يجر قدميه بين الأشياء التي لا تعرف كنهها والتي تغطي الأرض ، وكان من الواضح أنه لم يدخل مكتبه الداخلي بعد وإنما فضل أن يبقى حيث حدثت الجريمة ..

في غلظة قال لنا أحد رجال الشرطة شيئاً ما .. لا توجد ترجمة سواحلية لكن نبرة الصوت وتعبيرات الوجوه لخير مترجم : امش من هنا منك لها ! أو شيء من هذا القبيل ..

صاح (سينوريه) فى عصبية فى الشرطى :

- « كفى ! إننى مازلت سيد مكتبى ، ولا أسمح لهذا الاحتلال العسكرى أن يمنع أحداً من الدخول ! هل تفهم أيها القرصان القبيح ؟ »

ومن جديد كان الكلام بالفرنسية ، لكن تعبيرات وجهه ونبراته كانت مفهومة تماماً لرجال الشرطة .. قال لنا وهو يجرنا إلى الداخل :

- « لقد جلبوه من قريته - ذلك الشرطى - وأعطوه بندقية وأمره أن يقف هنا ويقتل من يحاول الدخول .. وهو سيفعل هذا للأبد ، حتى لو رأى مجموعة من الأطفال الرضع .. هلمّا ! لا تباليا بهذا القرصان .. »

- « سيدى .. إن كنت ترى أن الوقت ليس .. »

- « إنه مناسب ! بحق السماء ليس هناك وقت أكثر مناسبة ! »

ثم جلس إلى أريكة هناك ، وجلست و(برنات) إلى أريكة أخرى .. قال لنا وقد لاحظت أننا نلجأ من الجو :

- « هذا طبيعى .. للمرء لا يتواجد فى مسرح جريمة كل يوم .. لا شك أن هذا لا يناسب نفسيتك الشفافة يا دكتور .. »

ابتلعت ريقها وبعد قليل همست :

- « دكتور (سينوريه) .. لا أدرى إن كنت أبهى فظة بهذا الكلام أم لا .. لكن الحقيقة هى أننى لا أستسيغ بتلّا معلمتى باعتبارى وسيطة روحانية أو ساحرة .. »

ابتلع المعاملة الخسنة وقال :

- « هذه خسارة كبرى لأننا كنا راغبين فى استعمال موهبتك من جديد !! »

ونظر إلى أعلى وقال :

- « لقد طلبت الإذن من العقيد (موادبيكتا) .. »

هنا نظرنا لثرى (موادبيكتا) رجل شرطة الكينى الذى كان أول من اقتحم (سافارى) فى ليلة الانفجارات تلك .. الرجل الذى يتكلم بخطورة وينظر بخطورة

ويأكل بخطورة ويدخل الحمام بخطورة .. الرجل
الذى تسيطر عليه فكرة : هذه أمور أمنية لاتفهمونها
ولا يجب أن تحاولوا فهمها .. من أين جاء ؟ يبدو
أنه كان فى المكتب الداخلى ، وكان - طبعا - يدس
عصا المارشالية تحت إبطه وقد قوس ظهره للوراء
مصعرا خذه للناس .. لا يستطيع الضابط فى قلب
إفريقيا أن يعيش دون عصا مارشالية كما يبدو ..

قلت له ضاحكا :

- « يبدو ياسيدى العقيد أنه بوسعك أن تنقل مكتبك
إلى هنا .. إتنا نراك أكثر من اللازم هذه الأيام .. »

لم يضحك .. فقط تقلص خداه الملينان بالأخايد
وقال باشمزاز :

- « هذا طبيعة عملنا .. أعمال إرهابية فى مرة ..
وجريمة قتل فى مرة أخرى .. »

أردف (سينوريه) وهو ينظر إلى (برنات) :

- « الأمر هين .. خطرلى أننا لن نخسر شيئا لو طلبنا

منك أن تفضى عينيك وتتخفى كل شىء فى
مسرح الجريمة هذا .. »

قال (موادبيكتا) فى حزم وشمم :

- « نحن رجال الأمن لانتق بأية أساليب غير البحث
الجنائى .. لكننا قد نتنازل ونقبل شيئا كهذا .. نحن لم
نضع شيئا فى الأحراز بعد ، وإن فرغنا من رفع
البصمات .. لا يبدو أننا سنجد إلا بصمات السكرتيرات
على كل حال .. يمكنك أن تأخذى راحتك .. »

قالت (برنات) فى توتر وهى تنظر لى :

- « لكن .. لكن .. من أين أبدا ؟ »

قال (سينوريه) على الفور :

- « هذا هين .. من الآلة للكتابة طبعا .. لو كان هناك
أثر من لـ Aura على شىء فلا بد أنها الآلة للكتابة .. »
ساد صمت متوتر :

ثم نهضت (برنات) متجهة إلى الآلة للكتابة
العملاقة ..

كانت موضوعة هناك على مكتب (إيفيلين) القديم ..
وكانت هناك لطفة من الدم الجاف الممزوج بالشعر
على حافتها المدببة .. هذا الجماد اكتسب معنى
رمزياً هائلاً حتى غدت له حياة خاصة مريعة .. هذا
وجود ثقيل لا يمكن تجاهله ..

مدت يديها في تردد إلى الآلة الثقيلة .. أغمضت
عينها وهتفت :

- « الآن أرجوكم الصمت .. »

ولم يكن من داع لهذا لأن الصمت كان ثقيلاً بما
يكفى ..

راحت تتحسس المعدن مغمضة العينين .. أنها
أعرف ما يدور بذهنها الآن .. إنها تحاول الكلام مع
الآلة .. تحاول أن تسألها عن ذكرياتها .. تحاول
اختراق تلك المسام بين الذرات التي منها دخلت
الـ Aura منذ صنعت الآلة في ألمانيا حتى صباح
اليوم ..

ورفعت عيني لأرى تعبيرات الآخرين ..

على وجه (سينوريه) تعبير مضحك من الأمل
المؤلم والانبهار الأبله .. على وجه (موادابكيثا)
تعبير أمني صارم يوحي بأن الأمور كلها تحت
السيطرة .. رجال الشرطة ينظرون في بلاهة إلى هذا
المشهد ، وإن كان من الواضح أنهم يفهمونه .. لا بد
أنهم يبحثون عن مرتكبي الجرائم بطرق مماثلة في
قراهم .. « المرأة البيضاء ساحرة » .. هذا هو
ما يقولونه في أذهانهم الآن .. لماذا لا نطلب رأي
واحد منهم ، مادام القياس النفسي يتناسب عكسياً مع
درجة التحضر ؟

(برنات) نفسها بدت لي في قمة سحرها وهي
تحنى مغمضة العينين على الآلة الكاتبة وقد تقلص
وجهها من فرط التركيز وانسابت خصلات شعرها
الأشقر تغطي ملامحها .. فخطر لي أنني لو كنت
رساماً تأثرياً من وزن (مونييه) أو (رينوار)
لأخرجت ألوان الباستيل في هذه اللحظة بالذات
لأقتنص تعبير الوجه والإضاءة وكل شيء .

ترى هل انتهت من المهمة ؟

هنا رفعت رأسها ببطء ، وقالت بصوت واهن :

- « هل من مكان آخر ؟ »

نظر (سينوريه) إلى العقيد ثم لى وقال :

- « ليكن .. أعتقد أن مقبض الباب .. »

دون أن يكمل عبارته اتجهت إلى المقبض وأمسكته بيدها اليسرى ..

★ ★ ★

- « اقترح أن تضعوا الشيء فى اليد اليسرى ، لأن الطاقة تدخل الجسم من الناحية اليسرى وتغادره من الناحية اليمنى .. »

★ ★ ★

- « علينا أن نتذكر أن للرؤى التى رأيناها قد لا تكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. قد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تتفض عنها الصدا .. سنواصل العمل ولن نينس .. »

★ ★ ★

وقفت (برنات) صامتة بينما نحن نتنظر لها منتظرين ..

- « وبعد ؟ »

لم ترد .. بدا أنها تركّز تفكيرها بشدة ..

- « (برنات) .. وبعد ؟ »

هنا رفعت رأسها كأنما أفاقته من حلم ، وقالت :

- « فى الحقيقة أعتقد أننى فشلت ، لا أرى شيئاً .. »

عدت أسألها :

- « ولاحتى شكلاً ضبابياً غير مميز ؟ »

قالت فى هدوء وهى تنظر إلى يديها :

- « ربما كان شخصاً ملثماً .. لست واثقة .. كان

هناك شخص ملثم على الأرجح .. »

بخيبة أمل مغلقة باللفظ ، قال (سينوريه) :

- « ليكن .. لنقل إذن إن اللص كان ملثماً .. »

- « يبدو هذا .. »

قال (مودابكيننا) فى غلظة :

- « هذا لا يجعلنا نتقدم لحظة .. قلت لك يا بروفيسور
انه لا داعى لإضاعة الوقت .. »

- « لم نخسر شيئاً على كل حال .. »

وابتسم لنا (سينوريه) وقال وهو يعاود
الجلوس :

- « يمكنكما العودة .. شكرًا .. »

هزئت رأسى وغادرت الغرفة مع (برنادت) ..

كان الليل قد دنا ، وأدركت أننا سننام على الفور
دون كلمة أخرى .. لقد كان يومنا مرهقاً ..

★ ★ ★

9 - نيروبي من جديد ..

فى الصباح كان أول ما وجدته هو خطاب من
(بوريس سيماكوف) ..

من الواضح أن هناك من كتبه له لأنه بإتجليزية
ممتازة حقاً .. وقد فتحته منهوفاً ، وكانت (برنادت)
وقتها تعد بعض الشاى لى فى البراد الكهربى الذى
لمتغناه من كينيا .. لا تنس أن هؤلاء الغربيين لا يشربون
الشاى كما نشربه نحن ، بينما القهوة عندهم تشبه
الماء .. فى كل لحظة وكل وقت .. وهى قهوة لاتمت
لقهوتنا هى الأخرى .. بل هى أقرب إلى حساء
الأحذية .. وقد احتاج الأمر إلى فترة حتى علمتها
طريقة الشاى المصرى القوى زكى الراحة ..

قلت لها فى لهجة انتصار :

- « هل تصورين ؟ خطاب من الروسى المخبول ! »

ثم فضضت الخطاب ورحلت اقرأ بصوت عال :

« عزيزى علاء .. عزيزتى برنادت .. »

« كيف حالكم يا شباب هناك ؟ قلت لكما إننى احتفظ بالحق كاملاً فى أن أطلب أى واحد لاستكمال نتائج البحث .. ولما كنت قد شعرت بأن (نيروبي) راقت لكما ، فإتنى لن أشعر بكثير من تأنيب الضمير لو طلبت منكما أن تعودا إلى معملنى بالجامعة .. أعرف أننى تلقيت الكثير من اللعنات فى الآونة الأخيرة ، لكنى مطمئن على الأقل إلى انكما لستم من لاعبنى .. »

« سأكون بانتظاركما فى أى وقت ابتداء من الاثنين .. أى بداية الأسبوع القادم .. »

« باختلاس : ب . سيماكوف »

كانت لهجة الخطاب بعيدة عن الصيغة الرسمية التى توقعها ، وقد قلت هذا لـ (برنادت) مضيفاً إن الروسى العجوز يعرف كيف يمزح على ما يبدو ..

« فى البداية شعرت بأنى أمقته .. ثم بدأت أستريح له .. »

لم ترد فقلت أقول :

« هذه جاءت فى وقتها .. أراهن على أننا سنمضى الوقت فى رحلات مسلية ، إلى أن يأتى وقت العودة إلى دارنا .. هذا يروق لى .. »

من جديد لم ترد .. فقلت :

« هل تشربين بعض الشاي معى ؟ »

« لا .. »

« إذن قهوة ؟ »

« قلت لك لا .. »

شعرت بخجل من تبرمها .. فى الواقع هى ثقيلة الظل اليوم .. إن متحناها النفسى فى الحضيض كما هو واضح .. الدورة النفسية والجسدية والعاطفية لها لحظات تصل فيها الذروة ولحظات تصل فيها إلى الحضيض ..

قلت لها :

- « لماذا لا تردين ؟ »

- « لقد رددت .. قلت لك لا .. »

- « (لا) فقط ؟ هذا ما يسمونه الكلام بالقطارة ..

أنت تعطين الردود على قدر الأسئلة بالضبط .. لاتضيفين
تعليقاً ذكياً ولا مرحاً ولا أى شيء .. »

صاحت فى عصبية وهى تضع كوب الشاي أمامى :

- « لكنى أرد .. لا تتوقع أن أقف على يدي وأؤدي حركة

(أكروبات) تعبيراً عن انبهارى بكلامك .. »

عدت للصمت .. واحمرت أذنائى على الأرجح لأننى

شعرت بهما كقطعتين من الفحم على جانبي رأسى ..
وللحظة كرهتها لأنها جعلتنى أكره نفسى .. ثم بدأت
شرب الشاي ونسيت الأمر برمته ..

على أننى لمحت وجهها فأدركت أنه من تخ مخم

كالقلقاس .. وثمة بطناً ضفدعين تحت عينيها ..

أما أنفها فأشبه بثمرة كرز كبيرة .. من قال إن هذه
الفتاة جميلة ؟

- « ألم تنامى أمس ؟ »

- « نعم »

- « ولماذا ؟ »

- « من حقى ألا أنام إذا أردت .. »

تبأ لهن ! يعرفن جيداً كيف يجعلننا نبدو كأطفال
سخفاء مزعجين .. بينما هن ! هن المشغولات بعظائم
الأمور المهمومات بمصير البشرية ذاتها .. هن
اللاتى يملكن شهوة إصلاح العالم ، ويعرفن أسرار
الرياح وما يقوله الببل فى أغنيته الحزينة ..

هذه هى الحقيقة .. (برنات) امرأة .. وكنت قد نسيت
هذا .. امرأة تغضب بلا سبب وتثور بلا مبرر .. ولها
تقلباتها النفسية العاصفة التى لا يمكن فهمها ..
« المطر بهطل دائماً بعد العواصف » .. هذه قالها
(سقراط) لتلاميذه حين سكبت زوجته وعاء الماء
القدر على رأسه بعد غضبة غير مفهومة ..

(برنات) امرأة وكنت قد نسيت هذا، حين حسبتها
قطعة من الذكاء الأنثوي الحساس الذي لا يخطئ ..
والواقع أن هذا الذكاء - على ما أعتقد - لم يوجد
إلا في مخيلة الحمقى ..

كانت هذه تجربتي الأولى مع عاصفة كهذه، لهذا
نهضت من دون كلمة وارتديت المعطف عازماً على
ألا أعود للغرفة إلا حين تحترق النجوم وتجف
المحيطات ..

في الأيام التالية القليلة ازداد الأمر سوءاً ..

كانت لا تنظر لي على الإطلاق وترد بكثير من
الشح .. وهي طريقة تجيدها النساء كي يصبننا
بالجنون .. أنت لا تستطيع اتهامها بأنها لا ترد
عليك، لكنك كذلك لا تشعر بأنها ردت ..

وكان وجهها في كل صباح يذكرني بضدع مصاب
بسرطان لمفاوي .. من الجلى أنها لا تتلم أو تتلم بعسر
بالغ .. وقد فشلت كل محاولاتي لفهم ما يضايقها ..

هل هو الحمل؟ وارتجفت لهول الفكرة .. ما زلت
أعتبر نفسي طفلاً، فكيف أصير مسنولاً عن طفل؟! ..

سألته عن ذلك، فقالت في سماجة:

- «ربما .. كيف لي أن أعرف؟»

قلت في غيظ:

- «يا سلام! أنت طبيبة وقبل هذا كله امرأة .. لا توجد
هرة في زقاق تحترم نفسها لا تعرف إن كانت حاملاً
أم لا ..»

- «أنا لست هرة في زقاق ..»

وهكذا انتهت المحادثة عند هذا الحد ..

وخطر لي أن الإسراع بالسفر إلى (نيروبي) قد
يحسن الأمور قليلاً .. لا بد من بعض التغيير ..

وفي الصباح دخلت مكتب المدير، واتجهت إلى
السكرتيرة (جين) التي كانت منهمكة في الكتابة على
منسق الكلمات، وشعرت بي فرفعت عينها تحوي
وهفت:

- « رباہ ! أنت فى أسوأ حال ! تبدو مثل .. مثل .. »

وفكرت بحثًا عن تشبيه ، ثم قالت :

- « تبدو كضفدع مصاب بسرطان لمفلوى ! أو ربما مثل درنات القلقاس ! »

أشعر بأثنى سمعت هذا التعبير من قبل .. ولكن أين ؟

ومددت يدي لأشرب جرعة كبيرة من كوب قهوتها وغمفت :

- « أنت تعرفين أن القهوة مفيدة لمرضى الجذام .. هل المدير موجود ؟ »

ودون أن انتظر ردها افتحمت المكتب ..

كان المدير منهمكًا فى محادثة هاتفية .. فانتظرت حتى أنهاها ، وابتلعت فى صبر رأيه المبتكر فى أن وجهى صار يشبه القلقاس .. ثم أخبرته أننا نريد الذهاب إلى (نيروبي) بأسرع ما يمكن ..

- « هل من أخبار جديدة عن القتل ؟ »

قال فى ملل ، وهو يفرك عينيه :

- « لا أخبار .. ماذا تتوقع ؟ قاتل لم يره أحد ويرتدى قفازات ، ولم يسرق شيئًا .. ثم إن رجال الشرطة هنا ليسوا بالضبط رجال (سكوتلانديارد .. باختصار لا يوجد أى خيط .. إن هذه القضية ستحفظ على الأرجح .. »

ثم مد كفه المفتوحة لى .. غريزيًا مددت يدي لأتلقى ذلك الشيء فى كفى .. كان قفازًا من الصوف مطويًا كما نظوى الجورب ..

قال وقد فهم حيرتى :

- « وجده عامل النظافة فى سلة المهملات الموجودة خارج المكتب .. واضح أن القاتل تخلص منه بمجرد الخروج كى لا يلتفت الأنظار .. هذا هو المبرر الوحيد لوجود هذا القفاز هنا حيث لا توجد أقسام طبية فى هذا الجزء .. لقد انتهت الشرطة من فحص كل شيء فلن يفيدهم أن يجدوا هذا .. »

قلت وأنا أمسك القفاز في توتر :

- « لكن .. البصمات ؟ إنها قد ؟ »

- « بصمات على قفاز من صوف ؟ إن للرجل اختاره

لهذا خصيصاً .. »

شعرت بالفعل بأن القفاز قد صار ثقيلاً في يدي

من فرط أهميته الرمزية .. لقد كان يلف يدي قاتل ..

ولا أدري لماذا بسسته في جيبي .. كأنه ذكرى لا يجب

أن تزول .. ثم غيرت الموضوع ..

- « وقائمة المشتبه فيهم ؟ الذين يعرفون بوجود

ذلك الشيء الثمين في مكتبك ؟ »

نظر لي في حيرة بعض الوقت ، وهتف :

- « أنت لا تعرف أن هناك شيئاً في مكتبي .. »

- « أنت قلت لي صبيحة الجريمة .. »

قال في توتر :

- « على كل حال لم يعد هنا .. بالمناسبة كل من

يعرفون بوجود هذا الشيء لديهم حجة غياب Alibi قوية .. »

طبعاً لم أخبره أنني أعرف - تقريباً - كنه هذا

الشيء .. مشكلته أنه ينسى ، ومشكلتي أنني لا أذكر

ما كنت أفعله وقت الجريمة .. ليست لدى حجة غياب

وهذا قد يجلب على رأسي تعقيدات لا داعي لها ..

هذا لن يعطل العدالة كثيراً ما دمت أعرف جيداً أنني

لست السارق ولا القاتل ..

يقولون في القصص البوليسية إن عدم وجود

حجة غياب قد يكون أدل على البراءة .. أما القاتل

الحقيقي فيحرص على أن يحتفظ معه بتذكرة سينما

لحفل يعرض في أثناء الجريمة .. يحتفظ بمحضر

شرطة لمشاجرة في أثناء الجريمة .. يوقع في سجل

زوار المتحف ساعة الجريمة .. يأتي بعشرة شهود

يقسم كل منهم إن المتهم كان معه ساعة الجريمة ...

باختصار أن حجج الغياب التي لا تدحض قد تدل على

التهمة أكثر مما تنفيها .. بينما البريء يتصرف

ببساطة وسذاجة من لا يتوقع سوءاً ..

قلت لـ (سينوريه) من جديد :

- « الآن هل تسمح لنا بالسفر ؟ »

قال وهو شارد الذهن تمامًا :

- « كما تريدان .. »

هذه المرة لم يكن هناك الجو المرح الطلق الذي
ميز رحلتنا السابقة إلى (نيروبي) ..

لقد كانت (برنات) شخصًا آخر ..

في ليلتنا الأولى رقدت في الفراش في غرفة
الفندق ، ونمت أو تهيأت للنوم ، ولكن خواطر حياتي
راحت تنغص على من حين لآخر .. وكانت
(برنات) بالطبع تنام في الطرف الآخر من
الفراش .. عند أبعد نقطة يمكن للمرء أن ينام فيها ..
وكانها مضطرة لأن تشارك ظريباتا فراشه لمجرد أن
النوم على الأرض أمر غريب نوعًا ..

سمعتها تنهض .. سمعت أنفاسها .. سمعتها
تحاول استنشاق المخاط الذي يوشك على أن يسيل
من طاقتي أنفها .. إنها تبكي !

هي ذى تقترب .. هي ذى تجلس جوارى .. هذا هو
الوقت المناسب .. ستهمس لي معروفة بكل شيء وهي
مطمئنة إلى أنى لا أسمع .. ستقول أشياء على غرار
سامحنى يا (علاء) .. أنا أحبك كثيرًا ولكن
ولكن هذه هي ما أبحث عنه : « ولكن أنا أحب
شخصًا آخر .. »

أو « ولكن أنا لا أحب الفاصوليا مثلك .. »

أو « ولكن راحة جواربك تنغص حياتي .. »

أو « ولكن إصابتك بالسرطان التى أخفيها عنك
تجعل الحياة صعبة .. »

أو « ولكن إصابتي بالسرطان التى أخفيها عنك
تجعل الحياة صعبة .. »

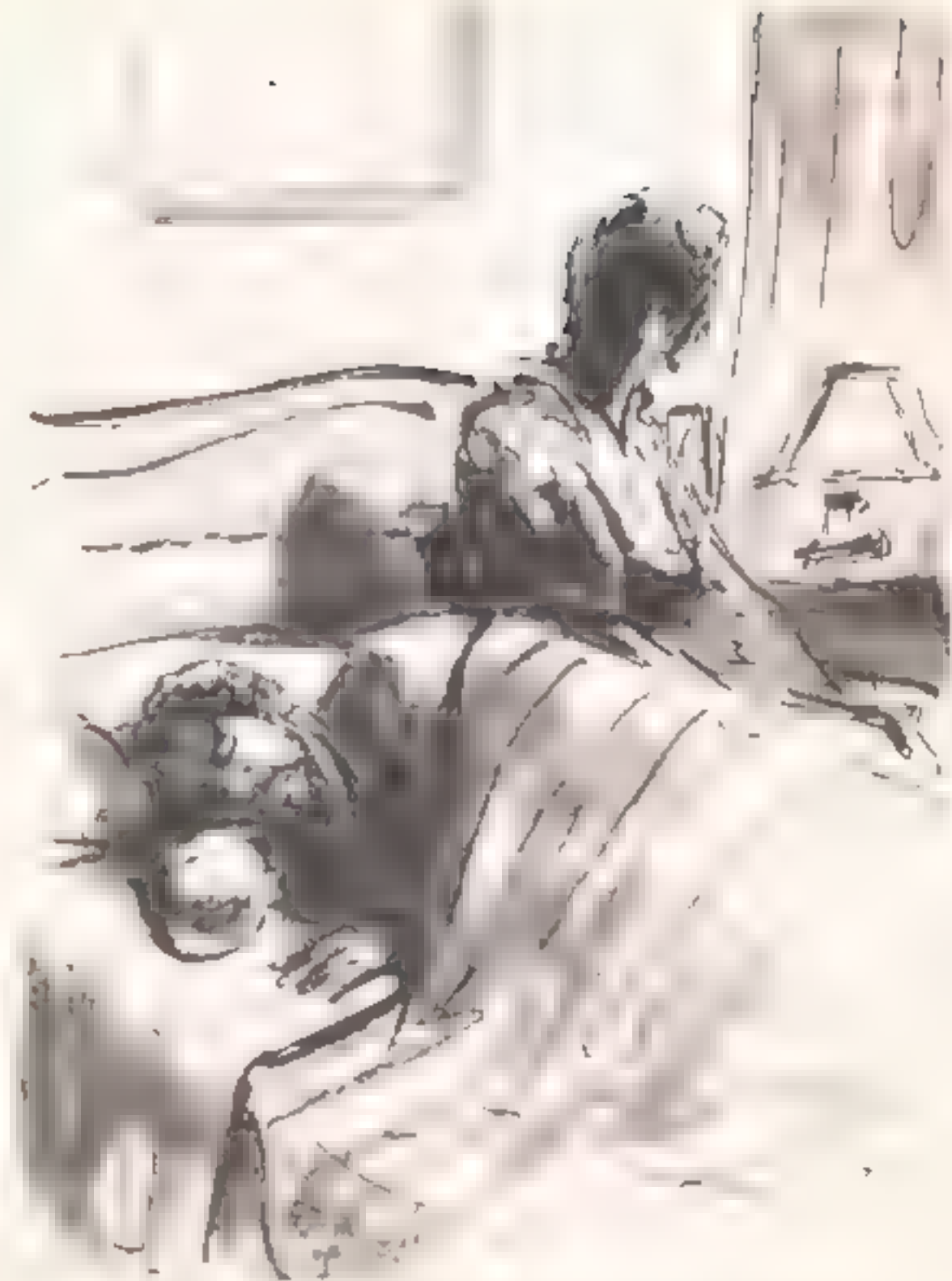
أو « ولكن أنا أكره خالتك جدًا .. »

المهم أن أظاهر بالنوم وأصغى جيدًا .. كنت أفضل
دوماً في خداع أُمِّي حين أظاهر بالنوم العميق في وقت
المدرسة ، خاصة في برد الشتاء والأمطار تنهمر
بالخارج ، وكانت تدنو بوجهها من وجهي وتصغى
بخبيث لأنفاسي .. ثم تأتي اللحظة .. لا بد منها ..
لا بد من رجفة في ركن فمى أو حركة عصبية
للجفن .. عندها تطلق صيحة النصر ، وتزيع الغطاء
عني وهي تدغدغني بخشونة صائحة :

.. « لكنك متيقظ ! أنت متيقظ ! أيها الخبيث ! هلم ..
لن يفلح شيء في جعلى أتركك تنام .. »

الآن يجب أن أخدع (برنات) .. يجب ..

جلست على طرف الفراش كما قلت .. ثم
مدت يدها الباردة وأمسكت بيدي .. وكفت عن
التنفس ..



هي ذى تقرب هي ذى تحلس حوارى هذا هو الوقت
المناسب ! ..

كان تأثير هذا في الظلام غريبًا ..

لماذا تفعل هذا؟؟

★ ★ ★

« علينا أن نتذكر أن الروى التى رأيناها قد لا تكون بهذا الوضوح .. قد لانفهمها الآن .. قد لانفهمها للأبد .. لكنها العلامة الأولى على أن حواسنا تنفض عنها الصدا .. سنواصل العمل ولن نينس .. »

★ ★ ★

« إن صاحب الموهبة يعرف ذلك الآن دون شك وهذا يكفينى .. »

ثم أشار إلى (برنات) وقال :

« هذه هى الأولى على الصف .. هذا يكفى فى الوقت الحالى .. »

★ ★ ★

إنها تحاول أن تقرأ ما بداخلنى ! تحاول أن تتشرب لك Aura من مسام جلدى !

ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

هنا فقط لم أعد التحمل أكثر ..

نهضت من رقادى المزعوم صائحًا :

« والآن هل لى أن أفهم معنى هذا كله ؟! »

★ ★ ★



10 - أنت .. أنت !

كانت اللحظات التالية هي مهرجان الدموع لو كنت تفهم ماتعنيه ..

كانت جالسة على الأرض في العتمة متربعة الساقين ، وقد غطت وجهها وراحت تبكي ..

صحت فيها في غضب وأنا أجلس جوارها :

« هل لي أن أفهم شيئاً ؟ يبدو لي أنني الحمار الوحيد في هذه المدينة .. »

أخيراً استطاعت أن تقول من بين دموعها :

« إنه أنت .. أنت من قتل (دانييل كينياتا) !! »

« لماذا يا (علاء) ؟ لماذا يا أحمر ؟ »

أمسكت بكتفها وهزتها وقلت من بين أسناني :

« لنكن واضحين يا عقل الجلالة .. أنا لم أقتله .. وأنا واثق من هذا .. فهل يمكن أن تكفي عن هذه الدموع البلهاء وتحديثني عن السبب .. حدثيني عن الخرافة التي تسملت من ثقوب عقلك المريض ، لتتسج نسيج العنكبوت هناك ، وتصنع هذا البيت الهائل من التفاهات والسخف والغباء ! »

قالت من بين الدموع والشهقات :

« كان كل شيء واضحاً لي من البداية .. منذ أمسكت بالآلة الكاتبة رأيت بوضوح تام وجهك ، وقد بدت عليه علامات الشراسة .. كانت أوضح رؤيا رأيته منذ عرفت القياس النفسي .. حتى حين لمسيت للمقبض رأيته بجلاء كنت في صورة فوتوغرافية .. »

هزتها أكثر ، فلو أنها كانت لبناً لتحولت إلى قطعة جبن حالاً ، وقلت :

« تشكين في استناداً إلى هذا الهراء ؟ »

ارتجفت شفتها السفلى وهمست :

- « ليس هراء .. ليس هراء .. دعوت الله كثيراً
أن أكون مخرفة .. لكنى أعرف جيداً أن حاستى
لا تخيب .. لقد جربت نفسى واتضح فى كل مرة أنتى
محقة .. »

ثم أضافت وقد بدأ المخاط يسيل من أنفها مما
جعل منظرها محبباً :

- « تذكر محاستى معك عن المال .. وعن الإغراء ..
لقد قابلت أنت امتحانك الخاص وفشلت فيه .. »

- « إن المال يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت ذى
حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى بحر لا يبعد
إلا عشرين متراً .. فكرى فى نزهة فى (سنغافورة)
أو الهند أو البرازيل ، فكرى فى يخت خاص وطائرة
رياضية و ... فكرى فى أى شىء غير هذا السجن
الذى نعيش فيه .. إننى بشكل ما أفهم (ستيجوود)
حتى لو كان قد بالغ بعض الشىء .. »

« أنت تعرفين من أين يأتى للصوف والمختلسون
والقتلة ! إنهم من بيننا .. إنهم نحن ! هؤلاء
أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف
مما تصوروا .. أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخى
الأخلاق كما حسبوا .. »

« لا تدخلنا فى تجربة ، ولكن نجنا من الشرير .. »

كنت الآن ارتجف أنا نفسى ..

من الحماسة أن يكلم المرء نفسه أمام النساء ..
من الحماسة أن تتفلسف وتستعمل الموضوعية معتقداً
أنك تحدث صديقك الفيلسوف .. هذه النقاط سوف
تستعمل ضدك يوماً ما ..

قلت لها وأنا أجلس مرهقاً على الأرض :

- « هل هذا دليل كاف برأيك ؟ »

- « لاتنس أنك تعرف الشيء الذى كان فى مكتب المدير .. بل وهمست لى بالحروف الأولى منه .. إنها تلك المجموعة باهظة الثمن من دبابيس الراديو فى صندوقها الرصاصى .. لقد خشى الرجل أن يتركها فى أى موضع من (سافارى) إلا فى مكتبه شخصيًا .. لاتنس أن أى لص عادى لايعرف قيمة شيء كهذا ، فلن يسرقه إلا شخص يعرف ما يفعله .. »

- « وهذا فى رأيك دليل كاف ؟ »

- « لماذا غادرت غرفتنا فى الثانية صباحًا ولم تعد إليها إلا فى الثالثة والنصف ؟ »

- « ذهبت لى قسم الطوارئ لأجلس مع (هوفمان) قليلاً .. ليست هذه المرة الأولى .. أحيانًا اشعر بارى بينما تغطين أنت فى النوم كالدب القطبى .. »

- « من سوء الحظ أنتى لم أكن دبا قطبياً وهى ! »

- « إذن أنا ذهبت للسرقه والقتل ، ثم عدت الى غرفتنا لأنعم بنوم هادئ .. »

- « هذا ما يبدو لى .. »

هنا كنت قد فقدت القدرة على الجلوس فرقدت على ظهري ناظرًا للسقف برغم أن الظلام كان شبه دامس .. وفكت لها :

- « هل تجدين أن ما قلت كاف لاتهامى بالقتل ؟ »

- « غير كاف .. ولن تقبله أى محكمة .. لهذا لم أتكلم .. لهذا طويت صدرى على السر الرهيب .. لكنى فى محكمة وجدائى .. وجدتك مداناً بالجرم المشهود .. »

ساد للصمت لبضع دقائق ..

ثم إننى نهضت فجلست على الفراش فى وضع الاحتباء ، وقلت ضاعطاً على كلمائى :

- « لقد أصغيت لكل كلمة مما تقولين .. ولاتهمنى حججك لأننى أعرف من أنا جيداً .. أنا لم أقتل الرجل ولم أحاول السرقة .. لكننى سأحل الأمر حين نعود إلى (سافارى) .. أولاً سأسلم نفسى للشرطة وأخبرهم بكل هذه (الأثلة) ضدى كي يفتشوا عن الحقيقة .. »

رفعت رأسها في دهشة وهتفت :

« أنت أحمق .. إنهم سيطيرون طرباً بك .. فهم بحاجة إلى أي متهم .. إن بضع صفعات ستجعلك مستعداً للاعتراف بقتل (يوليوس قيصر) نفسه »

« أعرف هذا .. وبما أنك واثقة مما تقولين ، فلا توجد مشكلة .. سيلقى المذنب عقابه ..

واستقيت على الفراش معلناً أنني راغب في التوبة
لكنني واصلت الكلام : .. »

« أما الخطوة الثانية فهي أن نتفصل .. ما دامت هذه الأفكار قد جالت في ذهنك ، بعد كل ما عشناه معاً ، فلم يعد مكان تلك في حياتي .. لقد انتهت قصتنا .. ويوسفني أنها كانت قصيرة جداً .. »

وأغضت عيني ..

ليست (برنادت) هي الوحيدة التي تجيد فن البكاء ليلاً .. لكن بعض قطرات الدمع على الوسادة لن تؤذي أحداً ..

وللمرة الأولى منذ زواجي شعرت بأثني وحيد ..
وحيد جداً .. أي سخف اقتعني أن وحدثني أنتهت وأن لي شريك روح ؟ نعم أنا وحيد ما دمت بعيداً عن أمي وأهلي .. وحيد حقاً في بلد غريب وسط أشخاص يتكلمون بلغات غريبة ويأكلون أشياء أغرب ، وليست هذه الشقراء التي هي زوجتي باستثناء ..

« تعالي لي يا امه » .. من السخيف والمضحك أن أقول شيئاً كهذا ، لكنني ظلت همساً أردد هذه العبارة حتى غبت عن الوعي ..

« ولكنكما تبدوان لي في أسوأ حال ! »

قالتها المترجمة عن البروفسور (سيماكوف) الذي راح ينقل عينيه بيننا في حيرة ..

كنا جالسين على مسافة خمسة أمتار لانتبادل حرقاً واحداً ، وقد قطب كل منا جبينه وشفتيه وكل شيء في وجهه .. لقد مرت علينا ساعة كاملة في المختبر دون أن تظهر علامة واحدة على المرح ..

قلت له فى وجوم :

- « هذا لطيف منك .. »

قال وهو يعقد كفيه :

- « الحقيقة أنتى لاحظت فى المرة السابقة أنكما زوجان متحابان إلى أقصى حد .. وقد خطر لى أن أجرى بعض تجارب السايكومتري التى تستند إلى وجود عاطفة قوية بين الموضوعين .. لكن .. فى الواقع .. لا أدرى لماذا أشعر ببعض القلق بصدد صحة هذا الفرض .. »

قالت (برنات) بوجه متصلب كالصخر :

- « لاشيء من هذا القبيل .. نحن فى أحسن حالاتنا العاطفية .. أليس كذلك يا (علاء) ؟ »

قلت بوجه أكثر تصلباً :

- « بلى .. بلى .. سنموت عشقاً لو زاد الأمر على هذا .. لنقل إتينا نجيد إخفاء عواطفنا .. »

نظر لنا فى شك ، كأنما يقول :

- « ليكون .. ليكون .. ربما أنا أحمق .. »

وبدأ يحاورنا حواراً طويلاً مملاً لا أذكر منه شيئاً ..

بعد قليل اعتذرت (برنات) لأمر ما ، وانصرفت على حين بقيت مع الرجل والمترجمة .. هنا بدا كأنما وجد الفرصة سانحة أخيراً فسألنى بكلماته الروسية المميزة المفعمة بالراء :

- « والآن .. ماذا حدث حقيقة ؟ هل تم استبدالكما ؟ »

قلت له فى ضيق :

- « هذا السايكومتري الذى اخترعته أنت .. لقد يمر حياتينا ؟ »

راح ينظر لى فى اهتمام خارق للحواس ، ثم سألنى :

- « كيف ؟ »

نظرت للمترجمة التى ترمقتى فى فضول .. بدا لى
من السخف أن أتكلم عن سرفى وجود مترجم ، ثم
قررت أن أعتبرها كما هى فعلاً .. آلهة ترجمة
لا مشاعر لها ولا خطر منها .. ولا أدري متى بدأت
أحكي القصة كاملة ..

عادت (برنات) فتوقفت عن الكلام ، لكن الرجل
قال بصوت عال :

- « تعالى يا بكتورة .. إن القصة التى يحكيها زوجك
غريبة حقاً .. »

أدركت على الفور موضوع كلامنا فقالت فى برود
وهى تتخذ مقعداً ، وتريح نكتها على ظهر مقعد آخر :

- « إنها كذلك .. »

أرشف الرجل ضاحكاً :

- « ليس ما تقولين دليلاً على شيء .. أنت لم تصلى

لهذه الدرجة من الخبرة بعد .. أنت موهوبة لكن ما من
رجل شرطة يمكن أن يقصدك طالباً رأيك .. تحتاجين
إلى عشرة أعوام من التركيز إلى أن تصلى لهذا
المستوى .. »

قالت فى حزم :

- « لكنى رأيت .. رأيت .. وهذا كاف بالنسبة لى .. »

ثم أريدت :

- « لقد شخصت حالتين مريضتين غامضتين بمجرد
إمسائك يدي المريضين .. إتنى بالفعل أملك الموهبة ..
وحين أمسك بسلاح الجريمة فأرى وجه زوجى ..
حسن .. ألا يعنى هذا شيئاً ما ؟ »

- « يعنى ألف شيء ما .. »

ثم أشار لنا كي ندنو منه .. وضع يده اليمنى على
عنقى ويده اليسرى على عنقها وقرب رأسينا ، حتى
إتنى توقعت أن يضرب رأسينا ببعض على سبيل المزاح

كما كنا نفعل في المدرسة .. أليس اسم هذه الضربة
(روسية) والرجل روسي ؟!

لكنه قال همسا بالإنجليزية ومن دون المترجمة :
- «دعاني أقل لكما شيئاً مهماً .. لقد قلت لكما
إنني لا أجيد فن (السايكومتري) .. ألم أقل هذا ؟ »
قلت :

- «بلى .. وقلت إن أستاذ الأدب ليس بالضرورة
شاعراً جيداً .. »

ابتسم وهمس :

- «حسن .. كنت أكذب ! »

11 - في السجلات الأكاشية ..

قال (بوريس سيماكوف) بالإنجليزية حين جلسنا
إليه في صباح اليوم التالي :

- «لاحظتما أنني بدلت بإجراء بعض الفحوص على
الدكتورة (عبد العظيم) .. لقد قمت بأخذ عينة من
دمها وبولها .. إنني راغب في الاطمئنان إلى صفاتها
الجسدية أولاً .. وهذا شيء روتيني على كل حال ..
لكن هذا ليس كل شيء .. »

وفكر قليلاً ثم أضاف :

- «السؤال الأهم الآن .. هل لدينا شيء يمت لمسرح
الجريمة بصفة ؟ »

تبدلت النظرات مع (برنات) ربما للمرة الأولى ..
هذا سؤال سخيف .. فالمرء لا يمشي حاملاً جزءاً من
مسرح الجرائم التي يقابلها .. وعلى كل حال هذه
الأشياء تخص رجال الشرطة ..

هنا مدت (برنات) يدها في حقيبتها الصغيرة ،
وأخرجت شيئاً ..

قالت وهي تلوح بالقفاز :

- « هذا كان مستعملاً في الجريمة .. أنا متأكدة ! »
ثم نظرت إلى وقالت بنفس الطريقة الباردة
كالثلج :

- « نسيت هذا الدليل الجديد .. كان في جيبك ..
وجدته وأنا أعد لسفرنا إلى (نيروبي) ! »
- « هذا طبيعي .. المدير نفسه قد أعطانيه .. »

لم ترد وناولته لـ (سيماكوف) .. وضعه في يده
اليسرى ، وراح يعتصره في نهم بضع دقائق .. كأنما
يستنطقه أسراراً غاية في العذوبة ، ثم سألتها :

- « هل جربت السايكومتري عليه ؟ »

- « لا .. لم أختل بنفسى قط منذ وجدته .. »

بدأ يتكلم بالروسية هذه المرة ، وكانت المترجمة

تحاول بصعوبة اللحاق بكلماته السريعة .. حتى إنها
سعلت من فرط ما ابتلعتها من دخان التبغ ..

- « دعاني أحدثكما الآن عن شيء ألمحت إليه فيما
سبق ، لكنني لم أشرحه بالتفصيل .. كل وسيط يعرف
ما هي السجلات الأكاشية .. إنها - فيما يقال - نظام
ملفات كوني يسجل كل شيء وكل كلمة وكل فعل ..
ويتصرف كالعقل الباطن في احتوائه على ذكريات
لا يمكن نسيانها .. هكذا قال (فرويد) مراراً .. العقل
الباطن يذكر كل شيء .. من مذاق أول رضعة
أخذتها ، وحتى عدد درجات السلم الذي صعدتما فيه
إلى هذا المختبر .. »

« يزعمون أن الأحداث تطبع على مادة تسمى
(أكاشا) .. ويزعمون أنه من الأكاشا ولدت العناصر
الأساسية كالنار والهواء والأرض والماء .. طبقاً لهذا
كلام فلسفي لا أساس له من الصحة .. أحياناً
يسمونها (العقل الكوني) أو اللاوعي الجمعي .. »

« هناك من يعتقد أن هذه السجلات قابلة للقراءة في مراحل من الوعي كالنوم والتأمل . ويعتقد اليوجيون أن هذه السجلات يمكن البحث فيها في حالات معينة من النرفاتا .. »

قلت له في ضيق :

- « وما علاقة هذا بكلامنا ؟ »

- « أنا سأدخل السجلات الأكاشية لمعرفة كل شيء عن صاحب هذا القفاز .. »

قلت له :

- « فهمت أنك لا تصدق بوجود هذه السجلات .. »

- « أصدق بوجودها يا بنى .. لكنى لا أعرف لها تفسيراً .. هذا فارق واضح .. »

ثم مد يده إلى المحقق وناولنى إياه بعد ما استوثق من جرعة السائل به ، وقال :

- « هذا هو (بنتوثال الصوديوم) .. ليس الأمر

متعلقاً بمصل الحقيقة ، لكنى بحاجة إليه كى أصل إلى حالة شبيهة بحالة (النرفاتا) .. سيكون سببى مزيجاً من النوم والوعي وفقدان الإرادة .. ستحقتنى به وريدًا ببطء .. أنت قلت لى إن عندك فكرة جيدة عن التخدير »

ابتسمت ابتسامة مريرة بمعنى أن هذا التشكك إهانة ..

نزع قميصه ليجلس عارى الجذع ، وبدأ يوصل الأقطاب إلى صدره ..

توت ! توت ! توت !

قال لى وهو ينظر إلى شاشة المرقاب (مونيتر) :

- « مادمت تعرف التخدير فأنت قادر بالطبع على ملاحظة هذا المرقاب .. لو لاحظت اضطراباً بطيئاً أو تسارعاً فى ضربات عليك أن تتصرف طبقاً لهذا .. »

نظرت إلى المنضدة التي تراصت عليها زجاجات
(الفيراباميل) و(الليدوكابين) و(البروبرانولول)،
كأنتا في عناية مركزة .. مع قناع أكسجين صغير،
وجهاز (أمبو) المخصص للتنفس الصناعي .. وشعرت
بأننى بحاجة إلى عناية مركزة أنا نفسى ..

رأى قلقى فابتسم وقال :

- « هذا لا يحدث عادة .. لكن تجربة دخول السجلات
الأكاشية ليست هينة أبدا .. لهذا لم أمارسها
إلا مرتين فى حياتى .. هذه هى المرة الثالثة .. »

قلت له فى عصبية :

- « اسمع .. لماذا لا تجرب مواهبك فى القياس
لنفسى ؟ »

- « إن ماسأقوم به أشد دقة بلا مجال للخطأ
الشخصى .. كأئننى أركب آلة الزمن قائما برحلة إلى
الماضى .. لقد تعلمت هذا من أحد الیوجیین »

ثم التفت إلى المترجمة التى كانت تدخن فى
عصبية ، وقال :

- « وأنت يا (كاتيا شلوندورفنا) .. لا أريد أن تفوتك
كلمة واحدة .. طبعاً من الواضح أننى سأتكلم بالروسية .. »
هزت رأسها أن نعم ..

من ثم أمسك بالقفاز الصوفى فى يده اليسرى ،
واغمض عينيه ، وأخذ شهيقاً عميقاً واسترخى فى
المقعد .. وقال لى :

- « ابدأ يا بنى .. »

ربطت (التورنيكيه) حول ذراعه ، وأولجت القناة
الوريدية فى وريد مناسب ، ثم تناولت المحقن ..
وبدأت الحقن ببطء .. لم يكن حساب الجرعة مشكلتى
بل مشكلته هو .. لأننى لو قللت الجرعة لما حدث
شئ ، ولو زددتها لدخل فى نوم عميق ..

توت ! توت ! توت !

قال وهو مغمض العينين :

- « الآن أرجوكم الصمت .. خفضى الإضاءة
يا (كاتيا شلوندورفنا) .. »

وبدا يهوم برأسه كأنما يحاول تبين شيء
عسير ..

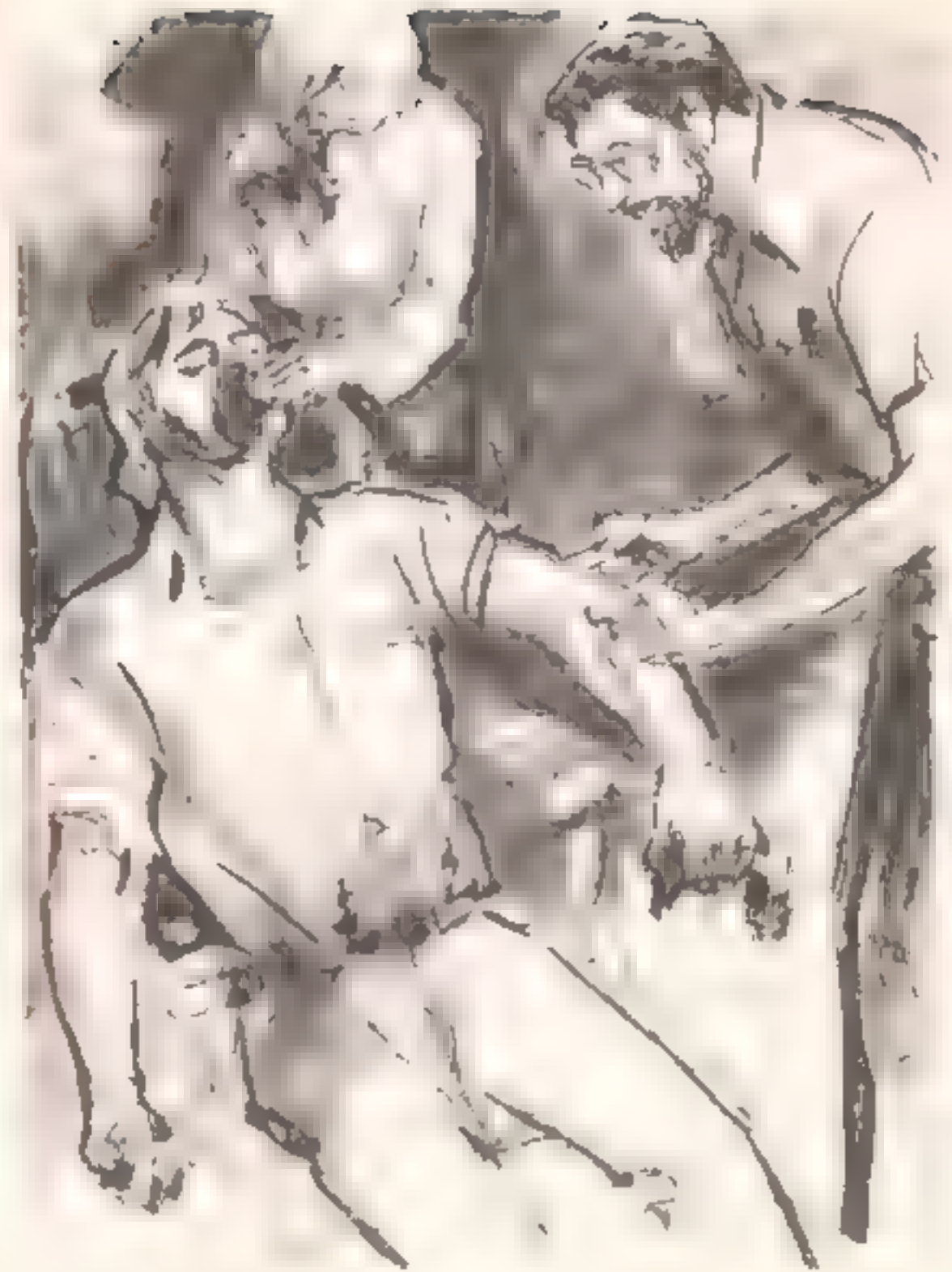
وساد صمت رهيب ..

أخيراً راح صوته يتعالى متكلمًا بالروسية بينما
المرجمة تحاول اللحاق به بصوت خفيض :

- «إبنى اخترق السجلات الأكاشية .. أفتح صفحات
لاوجود لها .. أنا أعبر المسافات إلى (هورو) ..
(سافاري) .. أعبر الأرمان إلى هذا القفاز .. هأنذا
أرى المشهد بتفاصيله ..»

وصمت وابتلع ريقه .. فأشعلت المترجمة لفافة
تبغ .. ثم عاد يتكلم :

- «هناك صندوق يحوى مجموعة من الأجهزة
البلاستيكية التى تدخل فى جراحات القلب .. هذا
الرجل يعلم .. هذا الرجل يريد .. هذا الرجل أسود
البشرة وله جرح على خده .. إنه يدخل الغرفة
ويبحث وسط الأشياء .. هناك من يدخل .. مهلاً !



ثم تناولت الحقن ورددات الحقن بيضاء .. أم .. كن حساب
الجرعة مشكلتى بل مشكلته ..

يطفى الكشاف .. يتربص ويحبس أنفاسه إن رجل
الأمن يبحث عن الضوء .. لسوف يراه ! لسوف
يقبض عليه .. ارفع الآلة الكاتبة الآن .. ثقيلة ؟ نعم ..
هذا يعنى أنها ستكون ثقيلة على رأس الرجل ..
ارفعها .. اهو بها .. لقد سقط ! لقد تهشم رأسه .. »

توت ! توت ! توت !

وبدا إيقاع كلامه يتسارع .. ومعه إيقاع ضربات
القلب على المرقاب ..

- « اهرب ! لاجدوى الآن من مواصلة البحث ! حتى
لو ظفرت بما تريد فلا جدوى .. لن تستطيع أن تخفى
هذه الأشياء .. اهرب .. إنه موت عبثى لاجدوى
منه .. لكن بوسعك أن تنقذ نفسك على الأقل .. آه !
رجلك تؤلمك .. يبدو أن الآلة الكاتبة قد هوت على
أصابعك بعد ما هشمت رأس الرجل .. »

توت ! توت ! توت !

الإيقاع يتسارع ..

توت ! توت ! توت !

- « إن .. إن الأمور .. تسوء .. إن »
ثم كفت المترجمة عن الترجمة .. فقط راحت تتكلم
بالروسية المذعورة بدورها .

هنا صاحت (برنات) فى رعب :

- « (علاء) ! إن شفتيه ازرقتا ! »

توت ! توت ! توت !

وعلى الشاشة راحت ضربات القلب تتوالى على
شكل تسارع ضربات فوق بطيئى .

انتزعت نفسى من الدوار ، وأمسكت بمحققن وملاكه
بالبروبراتولول .. ثم حقنت به الرجل ببطء وأنا
أراقب المرقاب .. على حين قامت (برنات) بتثبيت
قناع الأوكسيجن ..

توتوتوتوتوتو !

يا للكارثة ! هل نفقد الرجل ! هل يغيب للأبد وسط
تلك السجلات الأكاشية ، كأمين مكتبة ضاع وسط
الأوراق المغبرة المتراكمة ؟

بدأ القلب يهدأ .. وبدأ اللون الأحمر يعود لوجه الرجل ووجوهنا ..

فى النهاية فتح عينيه وهمس بصوت واهن بشيء بالروسية ، فقالت المترجمة :

- « إنه يسأل إن كان أجاب عن سؤالك ؟ »

نظرت إلى (برنات) وقلت فى تعب :

- « نعم ياسيدى .. لقد أجبت على السؤال .. »

جلس (سيماكوف) فى الشرفة يشرب عصير البرتقال ونحن نجلس حوله نرشف كلماته بدلاً من البرتقال .. ما زال منهكاً بعد تجربة أمس لكنه راض ..

قلت له :

- « ولماذا تنكر يوماً أنك تملك قدرات الإبراك الخارق

للحواس ؟ »

- « أحب أن أدارى بعض الأوراق فى كفى .. ثم إن العلماء لن ينظروا لى النظرة ذاتها لو عرفوا .. سيتعاملون مع أبحاثى وقتها على أنها (الهراء الذى يكتبه المخرف الروسى العجوز) »

فكرت قليلاً ثم سألته :

- « إذن (برنات) كانت مخطئة .. كيف استطاعت تشخيص الحالات المرضية إذن ؟ »

تحدث إلى المترجمة فقالت لنا :

- « الدكتورة (عبد العظيم) لم تصل بعد إلى هذه الدرجة من الشفافية .. إنها جيدة لكنها كما قلت تحتاج إلى عشر سنوات كى تصل إلى مستوى تشخيص الأمراض باللمس .. إن ما حدث وقتها هو أن الطبية فيها هى التى تكلمت .. ومن الجلى أنها طبية بارعة .. حين جلست أمام المريض فكرت فى الشيء الوحيد الذى لم يفكر فيه من سبقوها وأصاب حدسها .. لنقل إن الطب يحتاج إلى نوع خاص من الحدس .. نوع من الحاسة السادسة .. وهى تملك هذه القدرة .. »

قالت (برنات) :

- «لكن الرؤيا كانت جلية فيما يتعلق بـ (علاء) ..
جلية إلى حد لا يوصف ..»

قال في ثقة :

- «لنقل إن ظروفك لم تكن تمنحك ما هو أفضل ..
لاحظي أن د. (عبد العظيم) دخل للفرقة مراراً ولمس
الآلة الكاتبة مراراً .. ثم إنك تحملين جزءاً من الـ Aura
الخاصة به داخلك ، وهذا يجعل الأمور تختلط عليك ..
لا يمكن استقبال الـ Aura من الخارج ومن الداخل في
الوقت ذاته .. الأمر شبيه بأن أسمع صوت هاتف ،
فلا أعرف إن كان هاتف داري أم هاتف الجيران ..»

أخرجت قلماً ورحلت أدون به أفكارى :

- «رجلنا أسود البشرة .. له جرح على خده ..
ويخرج قليلاً بسبب سقوط الـ»

ثم نظرت إلى (برنات) وهتفنا في صوت واحد :

- «(مارسيل) !!»

قال البروفسور وهو يرشف بعض العصير :

- «أفترض أنكما عرفتما شخصاً مناسباً ..»

- «نعم .. إنه موظف توريدات مهم في المستشفى ،
ولو جاء شيء كهذا لمكتب المدير لعرف على الفور ..
بالواقع لعرف قبل أى واحد آخر ..»

- «إذن ابحثا عنه واستنطقاه ..»

كدت أنهض شاكرًا له ثم تذكرت شيئاً ، فقلت :

- «لحظة .. قلت إن (برنات) تحمل في داخلها
جزءاً من الـ Aura الخاصة بـ .. هل تقصد الحب ؟»

- «بل أقصد الحمل ! الحمل يا بنى .. لقد أجرينا
اختباراً للحمل ووجدناه إيجابياً ! إن طفلك ينمو في
أعماقها ، وهذا يجعل صورتك حاضرة عند أول
محاولة للإدراك من جانبها .. نسيت أن أخبرك أن
الحمل يعطل الكثير من قدرات الإدراك الفائق
للحواس .. ما بالك يا فتى ؟ لماذا تترنح هكذا ؟»

12- الخاتمة ..

لما عدنا إلى (سافارى) كانت ثقبوب كثيرة قد رتقت فى جدار زواجنا الذى أوشك على أن يتمزق ..
قالت لى (برنات) فى ذلك المساء ، وهى تفتح حقائبنا لتخرج ما بها :

- «أنا مدينة لك باعتذار آخر .. لم تكن معلوماتك دقيقة عن إبر الراديو .. ما كان فى مكتب المدير هو صمامات صناعية لجراحات القلب وهى باهظة الثمن بحق ..»

قلت لها :

- «كان المدير يتحدث عن إبر الراديو هذه منذ أسابيع ، وافترضت أنها هى الشيء الثمين الذى لم يخبر به أحدا ، لكنه أخبرنا اليوم أن هذه الصمامات وردت إلى الوحدة قبل الحادث ، واحتفظ بها فى مكتبه

لأنه خشى أن يسلمها للموظفين فى المخزن .. إنه مازال قلقا عصابيا يخاف كل أنواع المسئوليات المادية ..»

- «كان (مارسيل) يعرف . وخطر له أن سرقة بعض هذه الصمامات قد تمر على خير .. إن عدد من يعرفون لا يقل عن سبعة .. ويمكنه أن يفعلها دون أن يكتشف أمره ..»
ثم فكرت قليلا وسألتنى :

- «هل اعترف ؟»

- «سيعترف .. إن العقيد سيعرف كيف يجعله يتكلم .. هذه هى أمتع فرصة سنحت له فى الحياة ..»

- «ولو لم يتكلم ؟»

- «إن لن يحدث له شيء .. لا يمكن قبول هذه الروى التى رآها (سيماكوف) فى أية محاكمة .. لكن العقيد يعتمد على الضغط النفسى .. على الرعب الذى سيحل بالرجل حين يصفون له الجريمة كأنما

رأوها .. سينهار سريعاً .. إن كل رجل شرطة يعرف
هذا جيداً .. »

ثم نظرت لها في حدة وقلت :

- « هذه آخر مرة تسينين فيها الظن بى .. »

- « آسفة .. كانت كل الشواهد ضدك .. بل كانت
ضدى ! »

ثم فكرت قليلاً وأضافت :

- « لكن لماذا يفعل بعض الناس هذا كله من أجل
المال ؟ »

- « لأنه رائع .. هذا هو كل شىء .. »

ثم شردت بذهنى وأنا أحلم بصوت مسموع :

- « إن المال يحل مشاكل كثيرة .. فكرى فى بيت
ذى حديقة فى أهدأ موضع من العالم .. فكرى فى
بحر لا يبعد إلا عشرين متراً .. فكرى فى نزهة فى
(سنغافورة) أو الهند أو البرازيل .. فكرى فى يخت

خاص وطائرة رياضية و .. فكرى فى أى شىء غير
هذا السجن الذى نعيش فيه .. إتنى »

ثم توقفت عن الكلام ..

كانت تنظر لى فى قلق ..

قلت بسرعة :

- « لكنه المال الحلال طبعاً .. هل تفهمين ؟ أتحدث
عن المال الحلال !!! »

فى مختبره يراجع (سيماكوف) أوراقه .. يقطب
جبينه ..

ينادى المترجمة التى هى سكرتيرته أيضاً ، ويقول
لها :

- « ليست كل إجابات ذلك الطبيب الشاب - (عبد
العظيم) - غبية كما تصورنا .. هل تذكرين ذلك
المفتاح والقلم وبعض الأشياء التى استعملناها فى

تجاربتنا ؟ إنها تخص صديقاً لي من موسكو هو
(ألكسيس فيتشينا) .. ما معنى (فيتشينا) في
الروسية ؟ »

نظرت له واتسعت عيناها وقد فهمت ما يرمى
إليه :

« معناها .. معناها (لحم خنزير) !! »

وتبادلا النظرات .. كنت أتمنى أن أعرف ما حدث
بعدها ، لكن هذه الأشياء كلها خارج نطاق عملي في
(سفاري) .

تمت بحمد الله

www.dvd4arab.com

Hany3H

والله اعلم

بورو

www.dvd4arab.com

الآن .. نرجوكم الصمت

الآن نرجوكم الصمت .. إن التجربة التي
نحن بصددھا معقدة حقاً ، تفسدھا الكلمات
والقلميحات والضحكات الخافتة ..

الآن نرجوكم الصمت .. فما يحدث الآن
يحدد مصائر كثيرين من الأشخاص ..
الآن نرجوكم الصمت .. إنها حاسة كانت
لدينا ثم تلاشت أو غطاها الصدا .. واليوم
نحن نعيد اكتشافها ..



د. احمد خالد توفيق

www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة وسند
المؤسسة العربية الحديثة
للدراسات والبحوث
العلمية والثقافية
بمصر

الكتاب في مصر ٢٥٠
ومكتباته بالمدن المصرية
وغيرها من ارجاء الوطن

العدد القادم
كليمجارو